قراءة في كتاب

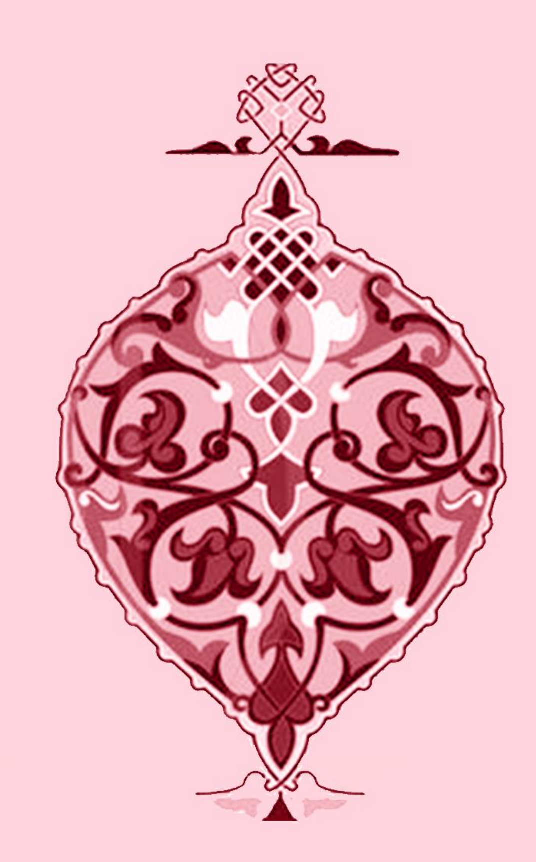
[حياة الصحابة]

لمحمد يوسف الكاندهلوى

للشيخ/ عمر بن محمود

أبو قتادة الفلسطيني





بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ سلسلة:

قراءة في كتاب "حياة الصحابة"

سلسلة مرئية من 17 درسًا

لفضيلة الشيخ:

أبي قتادة الفلسطيني

عمر بن محمود أبو عمر

– حفظه الله –

مقدمة الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

هذا تفريغ نصي لسلسلة مرئية للشيخ أبي قتادة الفلسطيني بعنوان (قراءة في كتاب حياة الصحابة).

وكتاب "حياة الصحابة" للشيخ مُحَمَّد بن يوسف الكاندهلوي (ت 1384) يعد من أشهر كتب هذا المؤلف وقد بلغ صيته الآفاق.

وفي هذه السلسلة عمد الشيخ أبو قتادة إلى التعليق على بعض مضامين الكتب؛ وهذه المادة تختلف عن مادة أخرى ناقش فيها الشيخُ الكتابَ ضمن سلسلة (ألف كتاب قبل الممات).

وتقع السلسلة في 17 درسًا، امتدت من شهر أكتوبر من عام 2018 الموافق محرم 1440 حتى ديسمبر من عام 2018 الموافق ربيع الآخر 1440.

وقد قام مُعِدو هذه المادة بالتحقق من ألفاظ الأحاديث والآثار بالعودة إلى تحقيق الدكتور بشار معروف للكتاب، والتعليقات التي في الحواشي هي تعليقاته.

وقمنا بالتصرف في المادة المفرغة تصرفا يسيرًا؛ حذفًا وزيادةً وتقديمًا وتأخيرًا، حتى تكون مناسبةً للقراءة أكثر.

وأخيرًا: كل الشكر للأخ يوسف الذي فرغ هذه السلسلة، ونسأل الله أن يجعلها في ميزان حسناته.. آمين.

هذا والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

الدرس الأول:

ذكر الرسول ﷺ والصحابة ﷺ في الكتب المتقدمة على القرآن (1)

[9 أكتوبر 2018 – 29 محرم 1440]

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلوات ربي وسلامه عليه.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة.

هذه لقاءات سريعة، وهي قراءة في كتاب "حياة الصحابة"، مع تعليقات يسيرة تحقق بعض الفوائد الظاهرة والبينة.

وربما نختار كذلك في هذا السياق بعض الكتب، أو بعض الأخبار والروايات من كتب أخرى، ولكن الاعتماد سيكون على هذا الكتاب، أي كتاب "حياة الصحابة" للشيخ مُحَمَّد يوسف الكاندهلوي عليه رحمة الله.

فنفتتح هذا اليوم بهذا الحديث الجليل، وهو المعَنْوَن في الكتاب تحت قول المؤلف: (ذكر الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم في الكتب المتقدمة على القرآن):

يقول رحمه الله: **أخرج أحمد عن عطاء بن يسار، قال: لقيتُ عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقلت: أخبِرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: "أجَل. والله إنه لموصوفٌ في التوراة ببعض صفتِهِ في القرآن: يا أيها النبيُّ، إنا أرسلناك شاهدًا ومبشِّرًا ونذيرًا، وحِرْزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتُك المتوكل، لا فظٌّ ولا غليظ ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسَّيئة السَّيئةَ ولكن يعفو ويغفر، ولن يَقْبضه الله حتى يقيموا الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، يفتح بها أعيُنًا عميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلفًا".**

وأخرجه البخاري نحوه عن عبد الله، أي عبد الله بن عمرو بن العاص.

بعض الفوائد:

من المعلوم أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما وجد جرابين في اليرموك -جرابين يعني حملين أو مزادتين كبيرتين- فيهما من كتب أهل الكتاب، فكان كثيرًا ما يروي عن هذين الجرابين، ولذلك كثرت روايته عن الإسرائيليات، مع أنه من أكثر الصحابة أخْذًا عن النبي ﷺ كتابة.

هو كان يكتب، يقول أبو هريرة: "**وكان يكتب ولا أكتب**". أي: كان عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب وهو لا يكتب.

ولكن مع كثرة أخذه تجنّب الكثير روايته؛ لأنه أخذ عن أهل الكتاب.

لكن هذا الحديث في الصحيحين، أو هو عند البخاري، وهو هنا عزاه لأحمد في الابتداء؛ لأن هذا من عادة بعض أهل العلم، يعزون بحسب الترتيب التاريخي وليس بحسب الصحة.

وهذا الحديث ينبئ عمّا جاء في وصف النبي ﷺ في التوراة.

والتوراة لها ترجمات عربية قديمة، ولكن ترجمت في زمن الأمويين ترجمة تامة، ترجمها بعض أهل الكتاب، فكان الصحابة -من تأخر منهم- يقرأ فيها، وكذلك قرأها العلماء بلغاتهم.

هناك بعض أهل العلم من كان يتقن كذلك العبرية ولكن كثيرًا منهم روَوا عنها من خلال الترجمة.

هذا الحديث فيه صفة النبي ﷺ، وفيه بيان أن التوراة التي كانت بأيدي الناس قديمًا حرفت كذلك من ذلك الزمن إلى يومنا هذا.

هذا الحديث دليل على أن في التوراة من الأخبار ما حرّف، أزيل من التوراة في زماننا هذا، ومنه هذا الحديث.

هذا حديث صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص، سند هذا الحديث إلى عبد الله بن عمرو بن العاص صحيح، وهو أحد العبادلة.

والعبادلة أربعة كما تعلمون، ليس فيهم عبد الله ابن مسعود، وإنما هم: عبد الله بن عمر، عبد الله بن عمرو، عبد الله ابن الزبير، عبد الله بن عباس.

فهذا الحديث يرويه بسند صحيح يصل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما، وفيه خبر أنه قرأ في التوراة هذا، أي من خلال ما ذكرنا من الجرابين من الأخبار، فدلّ على أن التوراة التي بين أيدي الناس الآن حرفت منذ زمن النبي إلى يومنا هذا.

وهناك أمور لم تحرف بقيت؛ كما لما أمر النبي ﷺ بإحضار التوراة ليقرأ فيها حكم الزاني، فوضعوا أيديهم لما وصلوا إليه.. وهذا موجود في التوراة التي بين أيدي الناس اليوم.

فعطاء بن يسار يقول لعبد الله بن عمرو بن العاص، يقول: **أخبرني عن صفات رسول الله ﷺ في التوراة.**

هذا دليل على أن انتشار خبر معرفة عبد الله بن عمرو بن العاص بما في التوراة قد انتشر في زمانه وفي حياته.

فقال: أجل.

أي موجود هذا الخبر عنه ﷺ، فما هي صفته في التوراة؟ قال: هي صفته في القرآن، ما ورد في القرآن ورد في التوراة وهو قوله: **يا أيها النبيُّ، إنا أرسلناك شاهدًا ومبشِّرًا ونذيرًا، وحِرْزًا للأميين.**

الحرز: هو المانع الحافظ.

وهكذا سميت هذه الأمة، النبي وصفها، وهذا ليس وصفا توراتيا فقط بأننا من الأميين، وإنما هو وصف نبوي ﷺ: (**نحن أمة أمية**). والمقصود: (**لا نقرأ ولا نكتب**)؛ يعني أساس اعتمادنا على الحفظ، ولا يأخذون بالحساب الذي فيه الكتابة.

وهذا ليس ذمًّا، وإنما هم أهل معرفة وعلم، ولكن ليسوا بمراتب الأمم السابقة في العلوم الدنيوية.

فالنبي ﷺ "**حرزًا للأميين**". وهذا لا يفيد أبدًا بأن النبي ﷺ خاص للعرب، ولكن أصل الإسلام يعتمد على أرومة العرب، ونزل النبي ﷺ عربيًا في قوم عرب، والقرآن بلغة عربية، والشريعة والحديث بلغة عربية، فالعرب هم أصل الإسلام، وبقية الأمم دخلت تبعًا للإسلام إلى العرب، والتابع يكون تابعا.

فلما كان النبي ﷺ حرزًا لمن أُرسل إليهم ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ**﴾؛ وذكر ابن جرير في التفسير المقصود بقومه: العرب.. فلما كان ذكرًا له وذكرًا لقومه، كان ذكرًا لمن تبعهم بعد ذلك من بقيّة الأمة.

فقوله: "**حرزًا للأميين**"؛ أي: حفاظًا للأميين يحفظهم من أن يضلوا وأن يشقوا وأن يخرجوا عن الحق والهدى، فهو حرز للأميين وهو حرز كذلك لبقية الأمة.

وكذلك تأتي (حرز) بمعانٍ كثيرة، وهو أن وجوده ﷺ وبركة وجوده في زمانه وبعد موته مانع من أمور كثيرة وقعت فيها الأمم السابقة، فهو حرز لهذه الأمة:

الأمة لا تجتمع على ضلالة.. هذا ببركة النبي ﷺ.

﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾، والاستغفار من شريعته.

وجوده خير، ووفاته ﷺ لأمته كذلك خير؛ بما يتبعونه عليه.

فهو حرز للأميين ولمن تبعهم بهذا المعنى، وهو حفاظ لهم يوم القيامة؛ فهو الذي يشفع لهذه الأمة بأن تدخل الجنة في الشفاعة الكبرى.

فهذه معانٍ متعددة للحرز.

والحرز هو المانع. ولذلك الناس يسمون قراءة القرآن حرزًا، لماذا؟ لأنه يمنع الشياطين.

يقول: "**وحِرْزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتُك المتوكل**".

لا شكّ أن اختصاصه بهذه الصفة، أنه المتوكل على الله؛ ذلك لأنه لولا هذه الصفة لما كان هذا الدين.

يعني هذا الدين قام برجل، وعودي من كل البشر في كل وقت، ومع ذلك بتوكله ﷺ، وتوكل أمته من بعده، على الله يحصل النصر.

انظر هذا الجمع: بالحرز حصل منع حصول الشرّ عليه، وبالتوكّل منع حصول الشر عليه وتحصيل الفوائد في الآخرين؛ فهو حرز وهو المتوكل.

قال: "**لا فظّ**".

والفظ: هو القاسي من الرجال.

كذلك تأتي بمعنى الغليظ، فيما يأتي.

الفظ هو الذي يجابه الكلام بشدة الكلام، ولم يكن النبي ﷺ إلا سمحًا، وكلما ازداد عنت الناس عليه وسوءهم عليه ازداد رحمة وازداد عفوًا.

ولم يجب ﷺ في كل المواطن إلا بالكلام الذي يبعد عنه هذا اللفظ ويحقّق لفظ الرحمة.. صدق من سمّاك بأنك الرءوف الرحيم.

وهكذا هي صفة النبي ﷺ، وهي من أخص صفاته: أنه كلما ازداد قبح الناس عليه ازداد رحمة عليهم؛ فهو ليس فظًّا ﷺ، وتصفه عائشة كما يصفه أنس بأنه لم يكن فظًّا "**ولا قالَ لشيءٍ فعلتُهُ: لِمَ فعلتَ كذا ولا لشيءٍ لم أفعلْهُ ألا فعلتَ كذا**"، ما صرخ فيَّ ولا انتقم لنفسه قط.

قال: "**ولا غليظ**".

والغليظ هو الذي يختار الشدة من الأمور.

والغلظة من القوة، تأتي بمعنى القوة.

والغلظة تأتي بمعنى تحميل الناس المشقة عليهم.

قال: "**ولا سخَّاب في الأسواق**".

السخَّاب: أي كثير الصراخ وكثير الخصومة.

حرف الصاد يسميه أهل العربية بحرف الخصومة، ولذلك ﴿**ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**﴾ هذه سورة الخصومة، كما يقول ذلك صاحب "البرهان" الزركشي، ويرجع إليه.

فالنبي ﷺ لا يكثر في الأسواق البيع والشراء ورفع الأصوات والحلف بالأيمان والخصومة في داخل الأسواق، وكان ﷺ سمحًا إذا باع سمحًا إذا اشترى سمحًا إذا اقتضى، كما وصف التاجر الصدوق.

قال: "**ولا يدفع بالسَّيئة السَّيئةَ**".

السيئة يدفعها بـ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾، هذه هي صفته ﷺ.

"**ولكن يعفو ويغفر**".

إذا الناس أساءوا له جابههم بالعفو والمغفرة.

وفي وقت آخر –حتى لا نطيل– نبين إن شاء الله ما الفرق بين العفو والمغفرة والتوبة، ولماذا لم يصف ربنا سبحانه وتعالى نفسه بالصفح؟، سنبين هذا في موطن إن شاء الله، لأن الوقت يضيق.

قال: "**ولن يَقْبضه الله حتى يقيموا الملة العوجاء**".

الملة هي الديانة. ملة الناس ديانتهم، وملة الناس مذهبهم، وملة الناس عقيدتهم، وملة الناس شريعتهم، وهذه الملة هي ملة إبراهيم.

نحن أمة مُحَمَّد ﷺ على ملة إبراهيم.

أما أننا أمة مُحَمَّد؛ فلأننا على شريعته، ونحن على اتباع لما يقوله في الشريعة.

وأما الملة؛ فالمقصود به أي الذي جاء به إبراهيم عليه السلام من التوحيد.

نحن على ما جاء به الخليل عليه السلام من التوحيد، فهذه الملة هي ملة إبراهيم، ولذلك يقول العبد في الصباح: (**أصبحت على فطرة الإسلام ودين نبينا مُحَمَّد ﷺ وملة أبينا إبراهيم**).

الدين؛ أي: الشريعة التي جاء بها. والملة: التي جاء بها إبراهيم عليه السلام، وهي ملة التوحيد، ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.

قال: "**يقيموا الملة**"

علامة على أن الملة التي جاء بها إبراهيم عليه السلام قد مالت وحادت وزاغت وعدلت عن الحق؛ فعبدوا غير الله، وأشركوا، وصورت قريش إبراهيم وإسماعيل في داخل الكعبة عليهما السلام وهما يلعبان بالأزلام ويستقسمان بالأزلام، فقال النبي ﷺ: (**قاتلهم الله أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط**)، ومحاها ﷺ بيده الشريفة.

فالنبي ﷺ لن يموت حتى يقيم الملة؛ أي: أقامها معتدلة على ما كانت عليه من الانحراف قبل بعثته ﷺ.

قال: "**بأن يقولوا: لا إله إلا الله**"

إقامة الملة لا تكون إلا بالتوحيد، إقامة الملة لا تكون إلا بنفي الشرك والأنداد والطواغيت عن الله سبحانه وتعالى.

و(لا إله إلا الله) تبدأ بالكفر بالطواغيت والمشركين وعباداتهم وآلهتهم ومعبوداتهم، وتثبت هذا الحق لربنا سبحانه وتعالى.

قال: "**يفتح بها أعيُنًا عميًا**".

﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ هذه القلوب المغلقة على الشرك، المغلقة على القاذورات، الله يفتح هذه العيون فيبصروا الحق.

والضلال يكون سببه إما الإعراض عن الحق أو العماء..

الحق موجود.

لا يتم الإبصار إلا بنورين: بنور البصر وبنور الشمس، بالنور الخارجي والنور الداخلي، فإذا وجد أحدهما دون الآخر لم تتم الرؤية الحقيقية، يمكن أن يكون الإنسان مبصرًا ولكن النور في الخارج غير موجود، كأن تكون ظلمة لا يرى، وربما يكون النور في الخارج (الشمس) ولا يكون نور العين فلا يتم الإبصار، فلا بدّ من نور خارجي ونور داخلي.

الحق موجود، الهدى موجود، ولكن العيون عمياء عنه؛ فيأتي الحق فيفتح هذه العيون ويروها مبصرة.

قال: "**وآذانًا صُمًّا**".

أي: عن سماع الحق. وهذا شأن الذين يأتيهم الحق فيعرضوا ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ** ﴾، إعراض بعدم السماع وإعراض بالانشغال عنه بغيره.

قال: "**وقلوبًا غُلفًا**".

والقلوب الغلف هي القلوب المغلفة. وقد يكون الغلاف ملتصقًا بالأوساخ والقاذورات.. يعني: قد يكون الكتاب عليه غلاف من القاذورات والأوساخ فتمنع رؤيته على ما هو عليه، وقد تكون غلافًا خارجيًا يقع عليه.. والغلاف الخارجي إنما يكون بسبب البيئة، والغلاف الداخلي يكون بسبب المعاصي.

إما أن تكون معاصي ذاتية، أو أن تكون بوجوده في بيئة تمنع من رؤية الحق؛ فلذلك الله عز وجل أزال بالنبي ﷺ الموانع الداخلية المتعلقة بعمى العيون وصم الآذان، وكذلك الأغلفة التي تحصل أزالها؛ لأن الكثير من العرب امتنعوا عن الإسلام بسبب قريش والخوف منها، وكانوا ينتظرون على ماذا يسير الأمر، فلو هزم النبي ﷺ قريشًا لاتبعوه، وهكذا كان.

مرات الحق توجد له موانع اجتماعية وموانع من القوة، فيجب أن تزال، وهذا هو شأن الجهاد؛ يزيل الموانع التي تمنع الناس من لحوق الحق.

هذه صفة النبي ﷺ في التوراة.

والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني:

ذكر الرسول ﷺ والصحابة ﵃ في الكتب المتقدمة على القرآن (2)

[10 أكتوبر 2018 – 30 محرم 1440]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة.

هذا هو اللقاء الثاني مع كتاب "حياة الصحابة"، وما زلنا مع ما ذكره من (ذكر الرسول ﷺ والصحابة ﵃ في الكتب المتقدمة على القرآن)، وكما ذكرنا في اللقاء الأول على أن وصفه ﷺ جاء في التوراة، والآن نرى وصفًا له في كتاب آخر، وهو الزبور.

انتشر الآن ما يسمى بتحقيق التراث والتدقيق على الأحاديث، ولكن وقع الكثير من الخلط في مستويات العلم وقوة أدلة هذه العلوم: العلوم لها مراتب متعددة؛ فيعفى في التاريخ، يعفى في السيرة، يعفى في التفسير، في أسباب النزول، في المواعظ.. يعفى فيها ما لا يعفى في الأحكام، ويعفى في الأحكام ما لا يعفى في العقائد؛ ليست كلها على مرتبة واحدة.

ولذلك رأينا البخاري يروي قول عبد الله بن عمرو بن العاص، كما رأينا في اللقاء الأول، عما رأى في التوراة، والآن سنرى ماذا يقول من قرأ الزبور في النبي ﷺ.

قال الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي: **وذكر وهب بن منبه: إن الله تعالى أوحى إلى داوود في الزبور: يا داوود، إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد، صادقًا سيّدًا، لا أغضب عليه أبدًا ولا يغضبني أبدًا، وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأمته مرحومة؛ أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء وفرضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل، حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء... إلى أن قال: يا داوود إني فضلت محمدًا وأمته على الأمم كلها**".

كذا في البداية.

هو يعزو لكتاب "البداية والنهاية" لابن كثير، وهذا من العزو إلى كتب الفروع وليس إلى الكتب الأصلية.

وللتفريق: هناك كتب أصلية، وهي التي يروي أصحابها الأخبار فيها والأحاديث والآثار بأسانيدهم إلى قائلها، وهناك كتب فرعية، وهي التي تنقل عن الكتب الأصلية؛ فإما أن تروي الحديث بالسند الذي جاء من الأصل، أو أن تجرده من الأسانيد.

هذه طرق أهل العلم وهذه تفاصيل الكتب.

والزبور هو كتاب داوود عليه السلام، وداوود عليه السلام من بني إسرائيل، وهو والد سيدنا سليمان عليه السلام. وقد ذكر في القرآن كيف صارت له التقدمة عند قومه لما قتل جالوت.. عندما بعث الله طالوت ملكا، فقاتلوا المشركين وكان زعيم المشركين جالوت، فقتله، وتقول التوراة أنه قتله بالمقلاع بأن وضع الحجر في مقلاع ولوح به فرماه فقتل جالوت، فآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء.

والزبور في اللغة عندنا بمعنى القطع. زبر الشيء: قطعه، ولذلك الكتب تسمى: زبور؛ لأنها تقطع، يكتبون الكتاب ويقطعونه، فإذا قطع سمي زبورا؛ أي قطع. فالكتاب اسمه هكذا.

وإلى الآن أهل الجزائر يسمون قطّاعة اللحم -عندنا تسمى البلطة- يسمونها: المزبار، أي: الذي يقطع به. فهي لغة مستخدمة إلى الآن في بعض البلاد.

والعامة في بلادنا، في بلاد الشام، وخاصة أهل القرى من أهل فلسطين وغيرهم، تسمي ذكر الطفل الصغير: زبر، لماذا؟ لأنه يقطع، يختتن، فإذا قطع اختتن.

والقصة المشهورة -فقط لبيان اللغة-: عندما ذُهب بالباقلاني إلى ملك الروم، فسألته زوجة الملك: لماذا تختتنون؟ فقال لها: إذا زبر العود قوي. العرب تسميه التقليم عندنا، في بلادنا؛ يأتون إلى الشجر فيقلمون فروعه حتى يقوى الشجر وتخرج ثماره أكثر، فهذا القطع هو الزبر.. أي القطع، فقال لها هذا الإمام الباقلاني، قال: إذا زبر العود قوي، يعني أخرج ثماره، فالعرب تقطعه، وهكذا.

فلذلك سمي الزبور.

وواضح أنه كان مقطعًا في كتب متعددة، فسمي الزبور، أي: المقطع.

وأوحى الزبور إلى داوود عليه السلام.

والزبور هو القرآن، وكان يقرأه، حتى إنه سُهِّلَ الزبور لداوود عليه السلام؛ فقد روي أنه كان يأمر خيله أن تسرج فيبدأ بالقراءة، فما أن يسرجون الخيل حتى ينتهي من قراءة الزبور.

وكان ﴿**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ**﴾؛ فلجمال صوته كانت الجبال تردد صوته.

وفي بعض الآثار في الإسرائيليات أن الطيور كانت إذا سمعته وهو يقرأ في الزبور تصغي إليه؛ ولذلك قال النبي ﷺ: (**أوتيتَ مزمارا من مزامير آل داود**)، فدل هذا على أن صوته كان جميلاً جدًا.

وأهل العلم الكثيرون يقول: إن النبي ﷺ أوتي هذه الفضائل، والله تعالى أعلم.

وهب بن منبه هو أحد الإسرائيليين.

الإسرائيلية ليست دينًا، اليهودية دين.

نحن إذا قلنا: فلان إسرائيلي، فهذا نسبة لإسرائيل، وإسرائيل (الأسر/ئيل) فـ(الأسر) هو القوة والشدة، و(إيل) هو الله. وهذا اسمٌ عربي، إسرائيل.. والعبرية هي إحدى اللغات السامية كما يقولون، فهو إسرائيل بمعنى: عبد الله، أي: الذي أخذ دين الله بقوة، أي: عبد الله القوي.

فوهب بن منبه إسرائيلي، ولا يمنع في ديننا أن يسلم الإسرائيلي فيبقى إسرائيليًا؛ لأن الإسرائيلي هي نسبة نسبية وراثية، بخلاف اليهودية، فاليهودية دين، فنقول: فلان يهودي، يعني متبع لهذا الدين اليهودي، لكن حين نقول: فلان إسرائيلي، فيعني أنه منتسب –كما نقول: فلان قُرشي، نسبة لهذه القبيلة وهذه العشيرة؛ فوهب بن منبه من الإسرائيليين الذين أسلموا، وهو من التابعين.

يقول فيما قرأ في الكتب عنده: "**إن الله تعالى أوحى إلى داوود في الزبور: يا داوود، إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد**".

الله عز وجل يقول في أخذه الميثاق على الأنبياء، يقول: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا**﴾. فدل هذا على أن الله أخذ الميثاق من كل الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأخذ عليهم الميثاق أنهم لو حضروه

أسلموا له واتبعوه، فهو إمامهم، فأخذ الميثاق أن يؤمنوا به مع أنهم لم يروه وهو من الغيب بالنسبة إليهم، وأخذ الميثاق عليهم ما لو حضروه أسلموا واتبعوه وكانوا من شريعته، حتى قال ﷺ: (**والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني**)، وهو أعظم الناس أتباعًا، وضرب المثل به؛ لأنه من أكثر الناس أتباعًا بعد النبي ﷺ.

قال: (**والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني**). وقال الله عز وجل: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ**﴾؛ أي يؤمن بالنبي ﷺ.

وبعض أهل العلم قال في هذه الآية ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾؛ قال: ليس المقصود فيه عيسى فقط، وإنما جعلوها على معنى العموم؛ ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ أي: جميع أهل الكتاب ممن سيحضر عيسى عليه السلام سيتبعون النبي ﷺ.

هذه بعض أقوال أهل العلم: هذا ليس خاصًا بعيسى وبعض أهل الكتاب، ولكنه عامٌ في كل أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام أن كلهم يتبعون الرسول ﷺ.

وفي المسألة نظر، ولكن نذكر هذا القول للتدليل على ما عندنا.

يقول: "**إن الله تعالى أوحى إلى داود في الزبور: يا داوود، إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد**".

وهذا مذكور في القرآن: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾.

قال: "**ومُحَمَّد**".

وهذا أجل أسمائه ﷺ. وهذا الاسم اشتق من الحمد، واشتق من هذا الاسم وصف هذه الأمة؛ فهذه الأمة الحمّادة، الأمة التي تحمد الله، أمة حمّادة، ويوم القيامة لواء النبي ﷺ هو لواء الحمد، الذي يرفع اللواء يوم القيامة وتتبعه الأمة هو النبي ﷺ، ما اسم لوائه؟ لواء الحمد، وأمته من بعده تحمد الله عز وجل ولها هذه الصفة.

قال: "**صادقًا**".

والمعلوم أن النبي معصوم، بل كل الأنبياء معصومون عن الكذب ومعصومون من الوهم في تبليغ الرسالة.. أن يقع منهم الوهم والنسيان هذا ممكن، لكن أن يقع منهم الوهم في التبليغ هذا ممنوع.

قال: "**سيدًا**".

والسيد هو المقدم.

قال: "**لا أغضب عليه أبدًا**".

فهو مرضي عنه في كل حال؛ مرضي عنه قبل بعثته وبعد بعثته وفي حياته وفي مماته، وفي حياة البرزخ، وفي أرض المحشر، وله المقامات التي لا يبلغها أحد من خلق الله عز وجل.

قال: "**لا أغضب عليه أبدًا، ولا يغضبني أبدًا، وقد غفرت له قبل أن يعصيني**".

غفر الله له قبل المعصية؛ هذا معنى، وهو معنى ظاهر وبيّن، أي أن الله قال له: افعل ما شئت فقد غفرت لك.

وهذا وقع لأمته فكيف لا يقع له؟! فقد قال النبي ﷺ: (**لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**)، فإذا كان هذا الفضل وهذا المقام في أتباعه الذين يسيرون على نهجه، فكيف لا يكون له؟! ولذلك غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. هذا معنى.

المعنى الثاني: "**قبل أن يعصيني**"، غفرت له من غير معصية.

قد يسأل سائل: كيف يغفر الله عز وجل للعبد من غير معصية؟ والجواب: أن يمنع عنه المعصية.

وهذا بيّن في قول الله: ﴿**لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ**﴾؛ فسمى الله عصمتهم من الوقوع في التخلف، أي قلوب بعضهم وليس كلهم، يعني النبي لا يدخل في هذا، ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ**﴾؛ أي في الزيغ لا يدخل النبي ﷺ، ولا يدخل كل الصحابة؛ فسمى الله عز وجل حجبهم وعصمتهم من الوقوع في هذا الزيغ سماه توبة ﴿**لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ**﴾.

وهذا المعنى قاله كثير من أهل العلم، منهم الإمام الشافعي في كتابه "الأم".

فقوله: "**قد غفرت له قبل أن يعصيني**"؛ أي: إما أني غفرت له حتى لو وقعت المعصية.. ووقوع المعصية من الأنبياء مختلف فيها:

المتفق عليه عند أهل السنة أنهم معصومون من الكبائر.

وأما الصغائر؛ فمختلف فيها.

وأما ترك الأولى؛ فهو واقع، ترك الأولى ممكن يقع.

وهل يجتهد الأنبياء؟ الصواب أن الأنبياء يجتهدون، ولكن يقع التصويب ما لو أخطؤوا، ولذلك اجتهادهم محفوظ في المآل. وأما من يقول: لا يجتهدون أبدًا؛ فالمسألة عندهم واضحة، لأنه يوحى إليهم فيبلغون الحق ولا يخطئون.

قد يقول قائل: ألا يكون في ذلك تجرئة على المعصية؟ هذا السؤال يجري في نفس الفسقة ولا يجري في نفس العلْويين، ولا يجري في نفس النفوس العالية، النفوس العالية تستحيي إذا أُطلق لها المجال إلا أن تأتي بالخيرات، النفوس السافلة هي التي إذا أعطيت المجال بغت وفسقت وخرجت عن الحد. فإذا قال الله لعبده، وهو يعلم مقام عبده من الحياء عنده: افعل ما شئت فإني قد غفرت لك، فيكون هذا المقام أكثر منعًا له من الوقوع في المعصية ما لو ما لم يقع. لماذا؟ لأنه أعظم مقامًا وفيه حياء من الله أن يقيمه هذا المقام ثم يعصيه.. هذا لا يكون منه.

قال: **"وأمته مرحومة"**.

هذه أمة مرحومة في كل شيء: في أقدارها، وفي شرعها، أمة مرحومة في الدنيا، وأمة مرحومة في القبر، وأمة مرحومة في يوم القيامة، في المحشر، وأمة مرحومة بأنها أول أمة تدخل الجنة.. وشرح ذلك يعني يطول، لكن يكفي أن يعتقد المسلم أن هذه الأمة رحمها الله ما لم يرحم أمة أخرى على وجه الإجمال والعموم.

قوله: **"أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء"** لترتفع مقاماتهم **"وفرضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء... إلى أن قال: يا داوود، إني فضلت مُحَمَّدًا وأمته على الأمم كلها"**.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

الدرس الثالث:

صفة الصحابة الكرام (1)

[11 أكتوبر 2018 – 1 صفر 1440]

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلوات ربي وسلامه عليه.

ما زلنا مع كتاب "حياة الصحابة"، وفي اللقاء الثالث نقرأ تحت عنوان قاله المصنف عليه رحمة الله الشيخ مُحَمَّد يوسف الكاندهلوي، قال: (الآثار في صفة الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم)، يقول فيه:

"وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود ﷺ قال: "إن الله نظر في قلوب العباد فاختار محمدًا ﷺ فبعثه برسالته وانتخبه بعلمه. ثم نظر في قلوب الناس بعده فاختار الله له أصحابًا، فجعلهم أنصار دينه ووزراء نبيه ﷺ، فما رآه المؤمنون حسنًا فهو حسن وما رآه المؤمنون قبيحًا فهو عند الله قبيح".

وأخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب عن ابن مسعود ﷺ بمعناه ولم يذكر "فما رآه المؤمنون.. إلى آخره"، قال: وأخرجه الطيالسي نحو حديث أبي نعيم.

أولًا: أبو نعيم الأصفهاني عليه رحمة الله له كتاب مشهور من الكتب الرائعة، وهو كتاب "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء"، وأحاديث الحلية عامتها فيها علة، ولكن نحن نجري على قاعدة أن ما يذكر في السير وفي التواريخ وفي التفسير وفي المغازي وفي التزكية يتسمح فيها ما لا يتسمح في غيرها، ويتسمح في أخبار الصحابة ما لا يتسمح في المرفوع، ويتسمح في آثار التابعين ما لا يتسمح في أقوال الصحابة.. وهذا يعرفه طلبة العلم.

في هذا الحديث من كلام عبد الله بن مسعود –وعبد الله بن مسعود مهاجري قديم، عظيم الصلة بالنبي ﷺ، وكان يسمى بصاحب النعلين؛ أي أن النبي ﷺ شرفه بأن يحمل له نعليه، هذا شرف عظيم أن يحمل نعل النبي ﷺ.

وهذا صحابي عظيم، طال عمره رضي الله تعالى عنه، وكان من المهاجرين الأوائل، وله صفات خاصة.

ومن المعلوم بأن فقه أهل العراق عامته مأخوذ من فقه ابن مسعود، ومدار فتوى الصحابة؛ أي الفتوى التي تؤخذ عنهم...

بلا شك أن أبا بكر أعظم الناس فقهًا، وأن عمر من بعده، ولكن فقه أبي بكر لم يصل إلينا منه إلا القليل، لماذا؟ لأن حاجة الناس إليه كانت في المفردات، أي التي لا توجد عندهم؛ لأن الصحابة متوافرون، فماذا يحتاجون من أبي بكر؟! يحتاجون منه الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، كلها؟! يحتاجون بعض الأحكام منه مما لا يعرفها إلا هو. ولذلك كان أبو بكر ﷺ يقول من الأحكام ما لا يعرفها غيره.. عندما سألوا: "**أين يدفن النبي ﷺ**؟" لم يجدوا خبرًا إلا عند أبي بكر.

القصد: أن أربعة من الصحابة تأخروا وفاة فتوزع فقههم في الأمة، منهم عبد الله بن مسعود.. ومنهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم.

عبد الله بن مسعود كان نصيبه أين؟ كان نصيبه العراق، فكان فقهه في العراق، وكان من أصحاب علي ﷺ، وأقام في العراق، فأخذ عنه جموع من التابعين ونشروا علمه، فصار أهل العراق يختصون بفقه عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

ولذلك؛ لما سئل عمر ﷺ عن عبد الله ابن مسعود قال: "**كنَيْفٌ مُلِئ علماً**". كنيف يعني بيت، ويسمى الكنيف كنيفًا لأن الناس يكتنفون فيه، يختبئون فيه، يستظلون فيه من الحر والبرد والليل والظلمة فسمي كنيفًا.

وسمي الكنيف الذي يقضي الناس حوائجهم فيه كنيفًا؛ لأنهم يستترون فيه عند قضاء الحاجة.

ويقال: فلان في كنفه، يعني: في حفظه.

يقول عبد الله بن مسعود ﷺ.. انظر!! هذا من كلام عبد الله بن مسعود ومن فقهه!! قلنا: هو مرجع، هو من مراجع الفقه الإسلامي اليوم.

فقه العلماء، فقه هذه الأمة له سواقٍ عظيمة، من هؤلاء السواقي؟ فقه، ليس فقط الرواية لكن الفقه.

يقول: "**إن الله نظر في قلوب العباد فاختار محمدًا ﷺ فبعثه برسالته وانتخبه بعلمه**".

"**إن الله نظر..**"؛ هذا أمر من القدر لا يسأل عنه، لا يقال له: كيف؟، نسلم ولا ندري وجهه.

هو الذي خلق، فكيف بعد ذلك اختار؟! لو ذهبنا بعقولنا، وقد نُهينا أن نتكلم في القدر؛ لقول عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: "**الناظر في القدر كالناظر في الشمس؛ كلما ازداد نظرًا ازداد تحيرًا**".

طيب من الذي ساق قلب النبي ﷺ، من؟ الله.

قال: "**ثم نظر فاختار...**"؛ على أي باب من أبواب العلم والحكمة وزع الله عز وجل هذه المقامات على القلوب؟ هل عندنا جواب؟ نسكت؛ في الحديث (**إذا ذكر القدر فأمسكوا**)، ليس عندنا أي جواب، هذا سر، القدر سر.

الشريعة ليس فيها سر، فيها مراتب. وما من مسألة في الشريعة إلا يعطيها الله لإمام، وقد يعطيها لأئمة، وقد يفرد بها رجلًا -كما ذكرنا عن أبي بكر. من الذي حل مشكلة المرتدين؟ رجل أعطاه الله هذا العلم دون بقية البشر-؛ فالشريعة لا يمكن أن تكتم، وإذا حصلت نازلة لا يمكن أن تحبس عن جميع الأمة، لا يمكن، لا بد أن يقول فيها واحد أو اثنين أو بعض أو أكثر أو الأغلب يقولون فيها الحق. لكن القدر يمكن أن يحبس عن كل الناس ولا يعرفونه، وبعضهم يعترض وبعضهم يسلم مع عدم الفهم. وأنا أضرب لكم مثلًا بصلح الحديبية: لا عمر ولا أبو بكر فهماه.

يعني: لما جادل عمر أبا بكر لم يجد عنده إلا جوابًا واحدًا، وهو التسليم، وتفويض العلم إلى الله.

فالقدر قد لا يدري به أحد.

ولولا أن الخَضِر يعلم، وأعلمه الله، لو حدثت لموسى عليه السلام من غير الإخبار فمن الذي يدلنا على نتائج هذه الأحداث الثلاثة التي حدثت: قتل ولدًا، خرق سفينة، وأقام جدارًا؟ ما الذي يعلمنا بما يحصل بعد ذلك؟ لا أحد يدري.

فالقدر هو سر الله، وهو أعظم امتحان للخلق، حتى الأنبياء؛ أعظم الأنبياء قال: ﴿**وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ**﴾، هذا سر كتمه الله.

سؤال: هو الذي خلقهم، ثم نثرهم، ثم نظر فيهم فاختار.. هو الذي خلق، لماذا خلق هذا شقيًّا وهذا سعيدًا؟ لا ندري.. هذا سره.

قال: "**فاختار محمدًا ﷺ فبعثه برسالته وانتخبه بعلمه**".

فكان أفضل قلوب الخلق على الإطلاق هو قلب النبي.

ولذلك؛ الحق يحتاج إلى وعاء حق.

لو أحضرت الماء الزلال الصافي ووضعته في إناء قذر، ماذا يحصل؟! طبعا الماء الأبيض الذي لا لون له لو وضعته في إناء متلون...

ولذلك؛ لماذا نزلت الشريعة على العرب؟ نزلت الشريعة على العرب لأن فيهم من الصفات ما لا تحور الشريعة.

أولًا: صفات العرب لا توجد في أمة على هذا المعنى الذي اجتمعت في العرب، لا توجد.

أول صفة: اسمهم عرب، والعرب من الإعراب، يعني الصراحة والوضوح، وهذا الذي يسمى الصدق. من بعيد تستطيع أن تقول: هذا غضبان، وهذا راضٍ. إذا غضب قال شعرًا فسبَّ العالم كله، وإذا رضي قال شعرًا أظهر رضاه ولا يخفي... الدين يحتاج إلى هذا.

ثانيًا: الدين يحتاج إلى شجاعة.

ثالثًا: يحتاج إلى كرم.

والشجاعة والكرم هذا عطاء المال وهذا عطاء النفس، هما من مادة واحدة، ولذلك النبي جمعهما في حديث واحد: (**اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل**)، لأن مادتهما واحدة.

فاختار محمدًا ﷺ فكان قلبه هو خير القلوب.

ينزل الحق، ينزل الماء الصافي -النبي ﷺ شبه العلم بماذا؟ بالغيث- الشريعة تنزل من السماء صافية، تنزل على قلب صافٍ يبلغها كما هي، ثم تتلقاها قلوب صافية فيأخذونها على المعنى الذي أراده منزل هذه الشريعة إلى الأرض. لكن بعد ذلك القلوب تغيرت؛ صارت تدخل الشريعة من جانب وتطلع منحرفة؛ لأن الكثافة اختلفت، الموضوع اختلف.

النور يمشي سليمًا في الهواء، فإذا دخل الماء أيش صار؟ انحرف. الآن الشريعة تدخل، القرآن يدخل في القلوب فتصبح منحرفة، لماذا؟! لأن القلوب قذرة؛ يدخل الحديث فيؤوله، يدخل القرآن فيؤوله، يلعبوا به فيخرج مشوبًا بالهوى.

فالقصد: "**إن الله نظر في قلوب العباد**" المهم القلوب "**فاختار مُحَمَّدًا ﷺ فبعثه برسالته وانتخبه بعلمه**".

الانتخاب هو الاختيار، الاصطفاء، ولذلك تسمى النخبة نخبة، لماذا؟ لأنها خاصة دون الجماعة.

قال: **"فبعثه برسالته وانتخبه بعلمه. ثم نظر في قلوب الناس بعده، فاختار الله له أصحابًا فجعلهم أنصار دينه ووزراء نبيه ﷺ"**.

انظر!! الله عز وجل مدح دينه بأنه الحق.. هل هذا كافٍ في المدح؟ الحق حين يكون ضعيفًا ليس مدحًا تامًا.

﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ**﴾. الحق أيش معناه؟ لا يصيبه الزلل في ذاته بكونه باطلًا، ولا يصيبه الضعف أمام غيره. ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾، فالدين الظاهر أعظم من الدين المخفي ولو كان حقًّا.

فهذا الدين أخذ المدح من كل جهة: في ذاته، وموضوعه، ووجوده، وموقعه من خصومه؛ فلذلك ليحصل هذا لم يكن الحق كافيًا بأن يكون الرسول ﷺ هو الحق فقط (**يأتي النبي ومعه رجل ويأتي نبي وليس معه أحد**)، لكن هذا النبي من أكثر الناس أتباعًا لأنه أعظم الناس نبوة، لأنه أعظم الناس مقامًا، فكثر أتباعه.

وهذا ليس من فضله فقط، نعم هو من فضله، ولكن كذلك فضل أمته، وفضل المرء يعود على فضل أمته.

تصور أنك تمدح رجلًا ولكن تقول: بقية قومه وسخين!! في النهاية يكون هذا تنقيص له. فتصور أن النبي ﷺ هو حق... النبي لم ينتخب من العالم، من أين انتخب النبي؟ انتخب من الأنبياء، ولم ينتخب من الأنبياء انتخب من الرسل، ولكن أمته انتخبت من الأمم. أو يقال: إن أمته انتخبت من الأمم، وإنه انتخب من أمته، وهذا فضل عظيم كذلك.

فالله نظر إلى قلوب الخلق، إلى الأمم، أمم الأنبياء وليس العالم، هناك كفار وغير كفار، ولكن نتكلم عن أمم الأنبياء، فنظر الله إلى قلوب الأمم فاختار أمة مُحَمَّد ﷺ لتكون أمة له.

من أعظم الناس في الأمم؟ هم أصحاب الأنبياء، هم الذين حضروه فشاهدوه؛ لأن وجودهم على الخير متعلق به الخير في من بعدهم، فلو انحرفوا... ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ**﴾.

لماذا حصل الشك في الأتباع؟ لأن الشك كان في القادة.

لماذا حصل الشك في الأتباع؟ ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ**﴾.

لماذا؟ كيف حصل الشك؟ لأنه كان الشك في السابقين.

فلذلك؛ الله، لينصر دينه ويبلغ دينه على ما أنزله الله، اختار من؟ اختار هذه الأمة له ﷺ. فأعظم الناس هم أعظم الأمم، هي هذه الأمة. وأعظم هذه الأمة من؟ هم أصحاب النبي ﷺ.

قال: "**فجعلهم أنصار دينه**".

لم يأخذوه علمًا أخذوه نصرةً.

"**ووزراء نبيه**".

ما هو الوزير؟ ﴿**كَلَّا لَا وَزَرَ**﴾، ما الوزر؟ الملتجئ. يعني: الله يقول يوم القيامة: لا يوجد مكان تلتجئون إليه، يوم القيامة لا يوجد مكان تذهبون إليه.

الآن إذا نزل المطر يذهب الناس إلى بيوتهم، فالبيت ماذا؟ وزر. إذا حصل شيء تذهب إلى المغارة تختفي فيها، هذا وزر. يوم القيامة ﴿**كَلَّا لَا وَزَرَ**﴾.

فالوزير هو الذي يلتجئ إليه، واضح؟ لأنه يذهب إليه الملك ليستنصحه أو يرسل إليه الأوامر من أجل أن ينفذ، فهو يلتجئ إليه.

فالله عز وجل اختار هذه الأمة وزراء لمن؟ الأصحاب اختارهم وزراء لمن؟ للنبي.

إذا أراد الخير قال: قوموا جاهدوا، قاموا. إذا قال لهم: قوموا صلوا، يقومون. إذا أراد منهم شيئا... ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾؛ فهؤلاء وزرائه ﷺ.

"**فما رآه المؤمنون حسنًا فهو حسن، وما رآه المؤمنون قبيحًا فهو عند الله قبيح**".

هذه احتج به أهل العلم على الإجماع...

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

الدرس الرابع:

صفة الصحابة الكرام (2)

[15 أكتوبر 2018 – 5 صفر 1440]

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونصلي ونسلم على رسوله الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهذا اللقاء الرابع من القراءة من "حياة الصحابة" رضي الله تعالى عنهم وما زلنا في (الآثار في صفة الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم)؛ يقول الشيخ:

وأخرج أبو نعيم أيضًا عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: من كان مستنًا فليستنَّ بمن قد مات، أولئك أصحاب مُحَمَّد ﷺ كانوا خير هذه الأمة؛ أبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا. قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم؛ فهم أصحاب مُحَمَّد ﷺ، كانوا على الهدى المستقيم والله رب الكعبة.

هذا كذلك فيه –كما نرى– الأمر بالاقتداء بالصحابة ﷺ.

والعلماء –فقط كمسألة أصولية– اختلفوا في حجية قول الصحابي:

وتوصيف المسألة: لو قال الصحابي قولًا ولم يعرف المخالف له، وأفتى الصحابي بقول ولم يعرف المخالف.

إذا عرف المخالف، فحينئذ يقع الاجتهاد: إما بالتصويب أو بالاتباع، إذا كان يمكن المتابعة يمكن القول بهذا القول وهذا القول في أحوال متعددة، وهذا المشهور عن أحمد.

وأما قول الصحابي؛ فالمشهور أن الشافعي رحمه الله في القديم أصوليًا كان على الأخذ بقول الصحابي إذا لم يعرف له المخالف، ثم اختلف أصحابه من بعده في القول الجديد؛ ولذلك نقل ابن القيم عن الرسالة القديمة في "إعلام الموقعين" –وهذا النص ليس موجودًا في الرسالة المطبوعة بتحقيق الشيخ أحمد شاكر عليه رحمة الله– أنه يرى بالأخذ بقول الصحابي ﷺ.. هذا أمر.

الأمر الثاني الذي يشغب عليه بعض الناس، ومنهم ابن حزم عليه رحمة الله: أن الله لم يأمرنا باتباع الصحابة، فكيف نتبعهم؟! ويحتج بأن الصحابة قد اختلفوا ولم يكن أحدهم يرى وجوب اتباع واحد منهم. يعني: إذا قال أبو بكر خالفه الصحابة، فاحتج عليهم وأخذوا بقوله، ولكن حصل الخلاف. ولما قال عمر ﷺ أقوالًا خالفه بعض الصحابة فيها، كمتعة الحج خالف ابن عباس عمر فيها ﷺ، ولما قال بالخراج خالفه بلال وصحبه.. فإذًا كيف نقول بأن قول الصحابي ملزم؟!

أولًا: نقول: نحن لا نتكلم إذا اختلفوا، نتكلم إذا لم يعرف المخالف.

الأمر الثاني: في الشريعة لا يمكن الوصول إلى قول النبي إلا من طرق متسلسلة، والله أقام لكل أمة –أو لكل قرن– أقام أئمة يقتدى بهم؛ فنحن نرى أن الصحابة ﷺ لم يكن بينهم وبين النبي ﷺ حاجز، فأخذوا منه، لكن لما مات النبي ﷺ كان عندهم من مثال النبي الكثير في أذهانهم، فإذا غاب عن أحدهم شيء أخذ عن الصحابي الآخر، سأله، فإما أن يأتيه باجتهاده أو أن يأتيه بروايته. يعني: الصحابي إذا سمع من الصحابي إما أن يسمع روايته أو يسمع اجتهاده.

وكان الصحابة يجتهدون وتتغير اجتهاداتهم؛ فابن مسعود ﷺ كان يقول بأنه لا يجوز لأحد أن يقرأ أقل من ثلاث آيات في الصلاة. إذا قام يصلي الفريضة فلا يجوز له أن يقرأ بأقل من ثلاث آيات.. هذا أمر اجتهادي، لماذا؟ قال" لأنني نظرت فوجدت أقل السور آياتٍ هي ثلاث آيات: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فقال: إذًا أقول بهذا. ثم لما سمع قوله ﷺ: (**من قرأ بآخر آيتين من سورة البقرة كفتاه**) غيّر رأيه.

إذًا الرأي الأول كان مبنيًا على اجتهاد؛ فدل على أن الصحابة كانوا يجتهدون.

ويقول أبو بكر، لما سئل عن الكلالة: "**أقول فيها برأيي**"؛ فكان الصحابة يجتهدون، وربما وافق الصحابي الصحابي في اجتهاده، فإذا جائت الرواية سكتوا؛ كما حدث لما فتحت المجوس، ماذا يفعل بهم؟، فلم يجدوا خبرًا إلا عند عبد الرحمن بن عوف، ثم وجدوه عند غيره، فأنزلوا المجوس منزلة أهل الكتاب. وكذلك لما اختلف الصحابة في دخول الشام وفيها الطاعون، حتى جاء الخبر (**إذا كانت الطاعون بأرض قوم فلا تخرجوا منها ولا تدخلوا إليها**) كذلك عن عبد الرحمن بن عوف.

القصد من هذا: كانوا يروون لبعضهم ويجتهدون.

هذا بالنسبة للصحابة فيما بينهم، ثم بالنسبة للتابعين كيف يكون أمرهم؟ كذلك على هذا المعنى؛ يأخذون روايتهم وينظرون في اجتهادهم، فيكونون أئمة لمن بعدهم.

الصحابة يكونون بعضهم لبعض إمامًا في الرواية وفي الدراية، والصحابة بالنسبة للتابعين كذلك يكونون أئمة في الدراية والرواية؛ يأخذون من روايتهم ويأخذون باجتهاداتهم.

والقصد من هذا: أن الله اختار أفضل الناس لصحبة النبي ﷺ.

"من كان مستنًّا..".

وضع لنا قاعدة.

هذه قاعدة. وهذه القاعدة أغلبية، ولا تعني أبدًا أنك لا تقتدي بحي، هذا غير صحيح، الاقتداء الذي فيه الاطمئنان هو أن تقتدي بالميت، طيب كيف أقتدي به...

ومن هنا؛ جاز عند أهل السنة بالإجماع تقليد الميت، بخلاف الروافض وبعض أهل المذاهب البدعية؛ فعندهم لا يجوز تقليد الميت، ومن هنا وجب الاجتهاد للإمام؛ لأن الإمام يجب أن يكون حاضرًا ويوحى إليه.. فإذا غاب الإمام الآن؟! أخرج لهم الخميني ما يسمى بـ(ولاية الفقيه).

فعندهم لا يجوز تقليد الميت، وعندنا يجوز اتباع الميت فيما يقول.. فهذا الأمر المطلق.

السنة هي الطريقة المسلوكة. معنى السنة لغة: الطريقة المسلوكة.

"فمن أراد أن يستن" أي: يمشي في طريق مسلوك **"فليستن بمن قد مات"**.

وفي رواية تفسر هذا السبب: "**فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة**".

فيعني هذا أن الاقتداء المطلق في قضية السمة العامة؛ من التقوى، ومن الورع، ومن الأخلاق، ومن الدين، هو أن تستن بالميت، فهل تستن بالحي؟

في تاريخ أمتنا لم يكن الاستنان بالحي كذلك؛ فكان الناس يذهبون إلى الأئمة يرون أخلاقهم قبل أن يسمعوا منهم علمهم.

يقول: كان يرسلني أبي لأحمد لأرى سمته وهديه!!.

يذهب لأحمد حتى يرى كيف يتكلم، كيف يتعامل، وهكذا.

العلماء يدخل بعضهم على بعض ليأخذوا منهم السمت، ويأخذوا منهم الهداية في قضية السلوك والعمل.

فإذًا اتباع الحي هذا ممكن. لكن بأن يكون الرجل مرشدًا حقيقيًا متبعًا للنبي ﷺ، ولا يجوز التقليد المطلق لأحد إلا للنبي ﷺ، هذا مع تجوزنا لقول جواز التقليد؛ لأن اتباع النبي ليس تقليدًا، فالتقليد لا يطلق على الاتباع النبوي ولكن نقولها تجوزًا. فلا يجوز أن يقلد أحد تقليدًا مطلقا إلا أن يتبع المرء رسول الله ﷺ؛ فهو لا يخرج منه إلا حقًّا.. المرء هكذا وهكذا.

فإذًا: القاعدة: الاستنان المطلق في الهدي والسلوك لمن قد مات، والأحياء يُتعلَم منهم ما داموا على الهدي.

فمن كان مستنًّا فليستنَّ بمن؟ بأصحاب النبي ﷺ. لماذا؟ **"فليستنَّ بمن قد مات"** وهذا عبد الله بن عمر يقوله.

لشرح هذا الحديث لا بد أن نرى الوضع الذي يتكلم فيه... ابن عباس يقول: "**كان الناس إذا حدث المرء عن النبي ﷺ رموا إليه بأبصارهم، حتى وقعت الفتنة**". يعني: كان الناس لا يكذبون، كان الناس لا يحتجون على الوقائع باحتجاجات باطلة، ولو كان النص صحيحا لكن يحملونه على وقائع باطلة.. اختلف الناس، صار خلاف فإما أن يكذب، -ووجد الكذب في التابعين، يوجد بعض التابعين كالحارث الأعور، الحارث الأعور من أخص أصحاب علي ﷺ، يقول عنه أبو حنيفة: وكان كذابًا. الصحابة عدول كلهم، لكن في التابعين حصل هذا. فكان يقول ابن عباس: كان قبل الفتنة. ما هي الفتنة؟ هي قتل عثمان رضي الله تعالى عنه؛ فقبل قتل عثمان كان: قال رسول الله.. تلقفه الناس، أصغوا إليه، رموا إليه بأبصارهم.. فإذا وقعت الفتنة، إذًا صار هناك كذب وصار هناك اجتهادات يفهمها الناس أن رسول الله قد قالها وهم يقولونها من عند رأيهم، فيتوهم المرء أيقول حديثا أم من عند رأيه؟، ولذلك كانوا يتوثقون: أهذا من رأيك أم سمعته من رسول الله ﷺ؟. هذا لم يكونوا يقولونه قبل حدوث الفتنة. إذًا صار الكذب، صار الخلط بين ما يقوله الناس من اجتهاداتهم وقول النبي ﷺ، وصار تنزيل الأحاديث على غير موطنها، قال: "**فكف الناس**".. من أين أتيت بهذا؟ صاروا يتوثقون بعد الفتنة.

فابن عمر ﷺ يقول هذا القول في هذه.

"من كان مستنًّا".

يتحدث عن التابعين ممن يأخذون من أصحاب النبي ﷺ، ممن بقي، يقول: استن بمن قد مات، لماذا لا تأخذ من الحي ما يحصل من الفتن؟ لأنه قد يدخل الاجتهاد الخطأ.

"بمن قد مات".

يتحدث عن الموتى من أصحاب النبي ﷺ، وهو ينفي الاقتداء بالصحابة الذين بقوا أحياء؛ لوقوع الفتنة.

وهذا الفهم يؤخذ من قوله ﷺ لخالد: (**دعوا لي أصحابي**). خالد من أصحابه ولكن يتحدث عن أصحاب خاصين به، (**دعوا لي أصحابي**) أي: القدماء، هؤلاء لا تتحدثوا عنهم، قدماء الصحابة لا تتحدثوا عنهم. ويتحدث النبي ﷺ مع من؟ مع صحابي.

فلنفهم الحديث وموطنه وبيئته.

"أولئك أصحاب مُحَّد كانوا خير هذه الأمة".

أي: ممن مضى من القدماء؛ لم يختلط فيهم خطأ، ولم يقع منهم اجتهاد اختلف الناس فيه.

قال: **"أبرها قلوبًا".**

هذا وصف أصحاب النبي ﷺ.

"أبرها قلوبًا وأعمقها علمًا".

هذه قاعدة، وهي قاعدة القلوب؛ بمعنى: أنهم أخذوا الدين عمليًا، فالعلم لا ينزل على الذهن، إنما ينزل على القلب.

وفرق بين العلم الذي ينزل على الذهن، فيأخذه المرء معلومات، وبين الذي ينزل على القلب، فيأخذه عملًا. هذا الفرق.

فأولًا: الصحابة أخذوا العلم عملًا.

ثانيًا: "**أعمقهم علمًا**"؛ وميزة العلم الذي فيه العمق أن يكون موجزًا مليئًا بالمعاني؛ ولذلك كلامهم قليل ومعاني هذا القليل تملأ الوجود. وبعد ذلك صار الناس يتكثرون في الكلام وتقل المعاني.

وليس من أسباب ذلك أن العلماء قلَّ فيهم العلم فقط، ولكن قلَّ الفهم في السامعين كذلك. يعني: أنت الآن ربما تقول كلمة، والناس يقولون: ماذا يقول هذا؟، فتضطر لشرحها. أولًا ربما طبقة فهمت الجملة على المعنى المراد، ثم شرحتها قليلًا ففهمتها طبقة أخرى، ثم تضطر أن تشرح أكثر فتفهمها طبقة، وربما يبقى أناس لا يفهمون شيئًا حتى لو شرحت لهم الليل والنهار.

فلذلك؛ قلَّ اعتناء الناس بالعلم، وقلَّ اعتناء العالِمين بالعمل.

فالصحابة ﷺ ما هو أمرهم؟

أولًا: "**أبر الأمة قلوبًا**"؛ يأخذون العلم للعمل.

ثانيًا: "**أعمقهم علمًا**"؛ ولا يقولنَّ أحد: أين علوم الصحابة؟! علوم الصحابة لمن نظر فيها نظر العالم المبصر باجتهاداتهم، كيف كان اجتهاداتهم؟ يرى فيها العمق العظيم.

إذا كنا نحن في هذا الزمان نقرأ ليس للصحابة ولا للتابعين ولا لتابع التابعين بل لمن بعدهم ولا نفهم عليهم، وربما نقرأ للمتأخرين ولا نفهم عليهم.. لعمق كلامهم.

قال: "**وأقلها تكلفًا**".

ما هو التكلف؟ التكلف هو من الكُلْفَة. الكلفة هي المشقة.

والمقصود: أن المرء إذا تكلف ليجني العلم مُدِحَ.. المرء إذا تكلف شيئًا ذا قيمة مُدِحَ، لكنه إذا تكلف شيئًا قيمته قليلة أو لا قيمة له ذُمَّ؛ ومن هنا ترى أن العلماء يذمون الألعاب مثلًا، وإن كان فيها مشقة، لكن ليس فيها فائدة، فنرى ابن كثير يعيب على المماليك لعبهم ما يسمى المصارعة اليوم، قال: أغبياء! يمرنون أجسامهم ولا تنفعهم لا في جهاد ولا تنفعهم في حياة.

مثلًا: تجد أحدهم يتكلف ويمشي من أجل أن ينظر لشيء غريب لا قيمة له!!.

سحنون كان عند الإمام مالك، فسمع الناس أن فيلًا دخل المدينة، فخرج كل التلاميذ –سمح لهم– إلا هذا الرجل بقي، قال له: لماذا لا تخرج؟! قال: جئت أطلب العلم لا لأرى الفيل.

فالتكلف فيما لا فائدة منه مضيعة.

فإذًا: الصحابة أقل الناس تكلفًا.

لما يأخذ المرء العلم من أجل العمل يكفيه القليل، وإذا أخذه من أجل التنطع.. من تعلم العلم ليناظر به العلماء ويترفع به على السفهاء لم يكن نصيبه من هذا العلم إلا جهنم.

فالتكلف هي الأسئلة التي لا تعنيهم ولا تفيدهم، ولذلك لم يكونوا يتكلفون في علم لا ينفعهم. ولذلك العلماء كانوا إذا سئلوا عن مسألة: أوقعت؟ فإذا وقعت تكلفوا لها، وإذا لم تقع لم يتكلفوا لها، قال: حتى تقع.

فالتكلف المقصود به هو تعقب العلم الذي لا فائدة منه، ومن ذلك أشياء كثيرة سكت عنها القرآن؛ كبحثهم في لون الكلب الذي كان مع أهل الكهف!! ما فائدة ذلك؟!، كنوع العصا التي كانت في يد موسى عليه السلام!! ما الفائدة من هذا؟!. فهذا من التكلف الذي لا فائدة منه.

وهناك علوم كثيرة يتبجح بها الناس لا فائدة منها.

فالصحابة أخذوا العلم للعمل، فقلَّ فيهم التكلف والتنطع؛ ولذلك لم توجد بينهم المناظرات الشديدة.

متى يقع الخلاف؟ إذا كثر التوهم، والتوهم ينشئ من العلم الذي لا فائدة منه، لكن في أمر الواقع الناس يختلفون فيه اختلافًا يسيرًا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

الدرس الخامس:

صفة الصحابة الكرام (3)

[16 أكتوبر 2018 – 6 صفر 1440]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

مع اللقاء الخامس من قراءتنا لكتاب "حياة الصحابة" للشيخ مُحَمَّد يوسف الكاندهلوي رحمه الله، وما زلنا مع قوله (الآثار في صفة الصحابة الكرام ﵃)، يقول:

وأخرج أبو نعيم عن قتادة، قال: سئل ابن عمر رضي الله عنهما: هل كان أصحاب النبي ﷺ يضحكون؟ قال: نعم؛ والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبال.

كذا في الحلية.

هذا حديث مهم، ووصف ضروري، فيه معنى التعبد الحقيقي الذي لا تكلف فيه وليس فيه خروج عن إنسانية الإنسان.

أولًا: علينا أن نعلم أن الله عز وجل قد اختار الأنبياء من البشر، وطلب المشركون أن يكون مع الأنبياء من البشر أدلة غيبية، بل طلبوا أن يكون الأنبياء من نوع الملائكة!!.

لماذا طلبوا هذا؟! أنفة من اتباع الإنسان للإنسان –أنفة: أي كبرًا وغرورًا وصدًّا عن أن يتبع الإنسان الإنسان-؛ فالمرء يمكن أن يتبع الأجنبي وأما اتباع ابن الحي فصعب.

ولذلك جاء في الإنجيل: بأن طبال الحي لا يطرب، زمار الحي لا يطرب.. إذا كان أجنبيًا يطرب، أما طبال الحي منبوذ لا يسمعون له.

ومن ذلك: أن الإنسان لا يريد أن يتبع الإنسان.. إذا كان أجنبيًا، إذا جاء من قرية إلى قرية.. ومن هنا الأنبياء هاجروا. والنبي ﷺ من الذي اتبعه؟ لما خرج من قومه.

فالناس يأنفون من الذي عاش بينهم وعرفوه أن يكون سيدًا فيهم، ويحتاج مشقة ليكون كذلك.

فلذلك؛ طلب الناس أولًا أن يكون الرسل من الملائكة، فالله رد عليهم: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾، أي: لو أنزلنا مَلَكًا لجعلناه يلبس لباس البشر بزي البشر وبهيئة البشر، ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾، وقال الله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

النبي من جنس قومه الذين يرسل إليهم، لماذا؟ حتى يحصل معنى الاتباع.

اليوم، والنبي هو بشر، ومع ذلك الناس يرون أن اتباعه فيه مشقة، يرون اتباع الأنبياء فيه مشقة، ويتملصون من اتباعه بقولهم: هذا نبي!! مع أنه بشر. فالله جعل الأنبياء من نوع أمتهم من أجل أن يحصل معنى الاتباع؛ يأكل كما تأكلون ويشرب كما تشربون، بل يوعك كرجلين منكم ويتحمل أكثر منكم، ولا يجوز لكم حتى أن تزيدوا عليه في العبادة لأنه أتقى واحد فيكم.. فالثلاثة الذين جاءوا إلى بيته يسألون عن عبادته فتقالوها، فالنبي ﷺ قال رادًا عليهم: **(من خرج عن سنتي فليس مني)**، فدلالة على أنه لا يجوز لأحد من الناس أن يسبق النبي؛ لأن في السبق دعوى الأفضلية، وفي السبق دعوى عدم تمام النبوة التي جاء بها هذا النبي. ما هو وصف البدعة؟ أمر محدث بعد النبي ﷺ القصد منه المبالغة في التعبد.. فيه معنى المبالغة، وفيه معنى الرفعة على ما جاءت به الشريعة؛ أنها لا تكفي فنريد أزيد منها، وإذا فتح هذا الباب كان شرًا عظيمًا.

فالقصد: أن الأصل في الأنبياء أنهم بشر ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ والفرق: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. يتزوجون ولهم الأولاد ولهم الذرية، ويقع منهم ما يقع من البشر.

وهذا مما رد به القرآن على النصارى حين زعموا أن الذي جاءهم هو إله، وإنما الذي جاءهم رسول.

والناس الآن يسبون على النبي، من المشركين والزنادقة، يسبون عليه أنه تزوج وأنه كان يأكل ويحب الحلوى ويحب الذراع!! وهؤلاء إنما يفعلون ذلك من قبيل فساد عقولهم؛ لأنه لو جاء مَلَكٌ لقالوا فيه من الأمر الذي قالوه.

فإذًا: الأنبياء بشر، وكذلك أتباعهم من البشر يحصل لهم من معاني البشر.

وهناك في البشر من الأمور الفطرية ما لو تكلفها المرء للخروج عنها لما استطاع، إلا بأن يكون مريضًا؛ فلو أن رجلًا ادعى أنه لا ينام أبدًا، إلا أن يكون مريضًا، لا بد أن ينام، ولذلك (**آكل وأشرب، أصوم وأفطر، أقوم وأنام**)، لأن هذه بشرية، لو أراد أن يخرج إما أن يجن ويخرج من البشرية، أو أن ينتهي.

فالأنبياء كانوا يعيشون البشرية التامة، والبشرية فيها من الفطر ما إذا تجاوزها المرء خرجت عن حد الاعتدال فكانت معيبة، وإذا تكلف المرء زوالها أدت إلى فساده. فالنوم؛ لو أن المرء تكلف فيه حتى قلَّ يصاب بالمرض، وإذا خرج عن حد الاعتدال كان كسلًا، وكان تعطيلًا لحياته.

فهناك أمور فطرية لا يذم بها المرء ولا يمدح، ولا يجوز في الشرع أن يطلب تغييرها، بل يقيمَها على معنى الاعتدال والاستقامة.

هذا رد على الأديان الأخرى التي تكلفت تغيير فطرة البشر.. قالوا لهم: لا تتزوجوا، قالت لهم: جاهدوا أنفسكم، إذا أردتم التعبد عيشوا في الخلوات وفي رؤوس الجبال، تكلفوا المشي في الصحارى والقفار؛ فخرجوا عن حد الاعتدال، وبالتالي انقلب هذا التشدد إلى انحلال، وكل شيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده.

ولذلك جاء في قواعد الشرع، مما ذكرها العلماء، ومنهم الإمام الشاطبي: أن الشارع لا يأمر بما هو فطري لكن يعدل مقامه. الشارع لا يأمرك بأن لا تضحك، لأنه أمر فطري إذا سُرَّ المرء ضَحِك، ولا يأمرك بأن لا تحزن، (**إن العين لتدمع والقلب...**)؛ فهذا أمر فطري لا يتكلف الشرع في إزالته، لكن يأمرك بما تستطيع وليس مما هو فطري لا تستطيع إزالته.

هذه قواعد شرعية يجب أن نتعامل معها في الحياة.

من ذلك: "**سئل: أكان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟**"

هذا يدلنا على أمر مهم جدًا، وهو أن كتب الكرامة التي وضعت بعد ذلك في الأولياء كثير منها خُرافيٌّ؛ لأنه لا يستقيم مع سيرة السنن الخلقية التي أجراها الله في القدر، ليست من سنن الخلقية.

ومما ذكره ابن خلدون في قواعد التاريخ: شرط قبول الأخبار في التاريخ أن تكون موافقة لسنة القدر وموافقة لسنة بيئتها.

هذا شرط أول وشرط ثانٍ، هناك فرق بينهما:

الشرط الأول في أنها موافقة للسنن الجارية في كل حالة. ولكن هناك سنن تكون تابعة للبيئة، وذكر أمثلة، قال: المرأة العربية التي تكون من أبناء الملوك وأبناء القادة لا تذل نفسها حتى بالزواج لخسيس، فكيف تقبل بأن يزني بها خسيس؟!.

هذا حديث عن بيئة، وليس عن سنة قدرية جارية في البشرية جميعها. هناك سنن جارية وهناك سنن خاصة ببيئة؛ ومن هنا نفى تلك الأخبار التي قالت بأن من أسباب نكبة البرامكة العلاقة غير الشرعية بين أحد أبناء البرامكة وأخت هارون الرشيد، قال: هذا لا يتصور في العربية، ليس من سنن جريانها، والحقيقة هناك أسباب أخرى ليس هذا مقامها.

فإذًا: الشريعة لا تأمر بما هو فطري ولا تنهى عما هو فطري، بل تقيمه على معنى من معاني الاعتدال؛ فلذلك (**العين تدمع والقلب يحزن**) ونهى عن اللقلقة، لا تصرخ لا تنوح، هذا تقدر عليه.

فيسأل عبد الله ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: **"أكان أصحاب رسول الله يضحكون؟ قال: نعم؛"**.

هل كانوا يضحكون؟ كانوا يضحكون، ولكن لم يقف عند هذا.

ابن عمر كان ذكيًّا، والصحابة كلهم أذكياء؛ كانوا إذا سألهم السائل لا يقفون عند سؤاله إذا كان في الجواب إيهام لباطل أو إيهام لغلط أو أن السائل أراد به شيئًا، كما ابن عمر وهو في الحج عندما جاءه أهل العراق فسألوه عن دم البراغيث، فقال: ما أجرأكم على الباطل، أدم البراغيث تسألون عنه ولم تسألوا عن دم ابنة النبي ﷺ الذي قتلتموه؟!! فكانوا ينتبهون لهذا الأمر.

فسئل: أيضحكون؟ ربما يقول: نعم يضحكون، فيفهم السائل: اجلس في المسرحيات، امض وقتك في الضحك واللعب وإثارة النكات والطرائف على الخلق، فيكون هذا دليلًا، كما يفعله الآن أهل الضلال وأهل المسخ وأهل الفسق حين يجعلون مثل هذه الأحاديث حياة عامة، ويقيمون لها القوانين، ويقيمون لها الأعمال، وتصبح عملًا وشغلًا لبعض الناس... أعمل، ما شغلك؟ قال: إضحاك الناس!! ما شغلك؟ ممثل فكاهي!!.

هذه جوانب في حياة البشر.. كما يقال عن بيت الخلاء، لو قيل لرجل: أين تسكن؟ أيقول في بيت الخلاء؟! لو قيل له: ماذا تشتغل؟ أيقول أشتغل في بيت الخلاء؟!! هذه من الأمور التي يمر عليها المرء مرور الفطرة والاضطرار، ومرور الجزء القليل الذي يعبر عن فطرة الإنسان؛ أنه يضحك.

يضحكون.. لكن هناك شروط لهذا الضحك. منه هذا، وهو أهمه.

ومنه كذلك أن نهى رسول الله أن يضحك الرجل على الرجل، فقال ﷺ: (**لا يضحك أحدكم مما يفعل**). يعني: إذا ضرط المرء لا يجوز لك أن تضحك عليه؛ لأنها خرجت منه وأنت تفعلها كذلك.

(**لا يضحك أحدكم مما يفعل**) هذا نهى عنه النبي ﷺ.

ونهى النبي ﷺ أن يقول الرجل الطرفة على قوم فيضحك منها الناس على قوم كاملين.. كما يفعل الناس اليوم؛ يضحكون على مدن، يضحكون على قبائل، عشائر، يضحكون على بلاد، يستهزئون، ينشئون الطرائف المضحكة؛ لأن في ذلك إيذاءً.

القصد: أن هذا وضع له الشارع قوانين، ولم ينهَ عن أصله؛ لأنه فطرة، لا يمكن أن يلغى ولا يمكن أن يزول.. هذا أمر.

إذًا الصحابة كانوا يضحكون. لكن كيف كانت حياتهم؟

إذا دُعوا إلى الجهاد رجالًا، إذا دُعوا إلى الصلاة رجالًا، إذا دُعوا إلى المكرمات رجالًا، إذا دُعوا إلى التقوى والعبادة كانوا أئمة لها، إذا دُعوا إلى قراءة القرآن كانوا سادة هذا الميدان، وإذا دُعوا إلى ذكر الله كانوا الرجال القوامين الصوامين.

بهذا المعنى كان عندهم الأمر متسقًا.

ومع ذلك وجد من تصور أنه يمكن له أن يكون خيرًا من الصحابة في بعض المقامات!! مثل تعيير الصحابة بأنهم هربوا!!

لما قتل عثمان رضي الله تعالى عنه: كان عبد الله ابن عمر جالسًا، فجاء رجل فجعل يعدد مناقب عثمان التي أساءوا له فيها: أحضر عثمان بدرًا؟ ما حضر عثمان بدر. أفر عثمان يوم أحد؟ صاروا ينقبون. فأجابهم أن النبي ﷺ في بدر هو الذي أمره بأن يقيم عند زوجته لأنها في المخاض، وأعطاه النبي ﷺ سهم مجاهد، سهم من حضر الواقعة، وأما في أحد فالله عز وجل عفا عنه كما عفا عن الآخرين، غفر له، لماذا تعاتب؟ الله غفر له، هذه قضية بينه وبين الله.

فبعض الناس هكذا فعل: أفررتم عن رسول الله ﷺ؟ أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم أحد؟ قال: "**فررنا، ولكن أبو بكر وعمر لم يفرّا**".

وسألوا كذلك حذيفة، قالوا يومًا لحذيفة: لو شهدنا رسول الله ﷺ في الخندق لكنا وكنا، فقال: "**يا ابن أخي اجلس**"، كأنه يقول: لست بأشجعَ منا، ولا أكثر قوة منا، ولا أكثر صلابة منا، لكن هذا الواقع، فحكى له من العجائب، وهم أعظم الناس، لكن

وإذا مـــــا خــــــلا الجبـــــان بأرض   طلـــــب الطعــــن وحـــــده والنــــزالا

كثير الناس إذا توهموا قضايا: أنا أقفز من فوق الجبل، وأسبح في المحيطات، وإذا صارعت الأسد أمزق فكيه.. وإذا حضر الواقعة: فتخاء تنفر من صفير الصافر

فهذا من أعظم ما يستفاد: أصحاب النبي ﷺ كانوا يضحكون ولكن الإيمان في قلوبهم كالجبال.

النبي يكون ﷺ في حاجة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج ولم يعرفهم.

يحضر أمر الجهاد في تبوك، وهم على وشك قطف الثمار، وقد جاعوا وخربت بيوتهم ومزارعهم.

استجابوا لله ولرسوله وهم في جراحاتهم في أحد، يحمل بعضهم بعضًا، الأيدي مقطوعة، الأرجل مقطوعة، الجراحات في الصدور، فيأتي الأمر لهم باللحوق وراء أبي سفيان وهو المنتصر، فيمشون إلى حمراء الأسد حتى يعذرون إلى الله عز وجل.

هكذا هم أصحاب النبي ﷺ.

ولذلك؛ الباطل هو الاحتجاج بهذه النصوص من أجل صبغة الحياة، يصبغون الحياة، ينسون "**والإيمان في قلوبهم كالجبال**".

تقول: أكان أصحاب رسول الله ﷺ يقرأون الشعر؟ وكأنهم طول عمرهم يقرأون الشعر!!.

أأصحاب رسول الله ﷺ كانوا يلعبون؟ كأنهم كان عندهم نوادٍ لكرة القدم وشغالين ساعتين ويتدربون قبله بساعتين وتقاتلوا بعده بساعتين.. وراحوا إلى النار، وهكذا الأمة!!!

أكان أصحاب رسول الله ﷺ يعملون؟ كانوا يعملون؛ كانوا يبيعون ويشترون، عندهم تجارة، لكن أهكذا كانت حياتهم في تجارتهم؛ إذا حضرت الصلاة لا يخرجون، وإذا طلبت منهم الزكاة لا يزكون، وإذا جاء أمر الحج كانوا أبخل الناس عليه وهكذا؟!!

أهكذا كان أصحاب النبي ﷺ، أم لما نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ أنفق أبو طلحة (بيرحاء) خير ماله وهو أغنى أهل الأنصار مالًا؟!!

هكذا كان أصحاب النبي ﷺ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

الدرس السادس:

حرص النبي ﷺ على إيمان جميع الناس

[18 أكتوبر 2018 – 8 صفر 1440]

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من اتبعهم بإحسان وهدىً وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم، آمين آمين.

ما زلنا مع كتاب "حياة الصحابة" والقراءة فيه للشيخ مُحَّد يوسف الكاندهلوي، وربما نقرأ من كتب أخرى ولكن نمشي ونقرأ منه.. لا نقرأه كله ولكن نقرأ منه.

فتحتَ الباب الأول: (باب الدعوة إلى الله وإلى رسوله؛ كيف كانت الدعوة إلى الله وإلى رسوله ﷺ أحب إلى النبي عليه السلام وإلى الصحابة ﷺ من كل شيء، وكيف كانوا حريصين على أن يهتدي الناس ويدخلوا في دين الله وينغمسوا في رحمة الله، وكيف كان سعيهم في ذلك لإيصال الخلق إلى الحق)، يقول في (حب الدعوة والشغف بها.. حرص النبي ﷺ على إيمان جميع الناس)، يقول:

أخرج الطبراني عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ونحو هذا من القرآن قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويبايعونه[1] على الهدى، فأخبره الله عز وجل أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول، ثم قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾.

قال الهيثمي: رجاله وُثقوا، إلا أن علي ابن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس.

---

[1] كذا في مجمع الزوائد. في معجم الطبراني: ويتابعوه، وهو أصح

من جهة السند، كما قلنا في التفسير: يتسمح كما يتسمح في المغازي والسير وفي المواعظ وغيرها. وهاهنا: علي بن أبي طلحة ثقة، لكنه لم يقابل ابن عباس، والأغلب على أن علي بن أبي طلحة أخذ أحاديث التفسير عن ابن عباس أخذها عن طريق مجاهد، وكان يتسمح بعدم ذكر (مجاهد عن ابن عباس) لعلم السامع بأنه حين يذكر ابن عباس إنما يعلم السامع عمن أخذه، وهو مجاهد بن جبر عليه رحمة الله؛ الذي عرض القرآن كثيرًا على ابن عباس، يوقفه عند كل آية. ومجاهد ابن جبر هو من أئمة التفسير، وأهل العلم اعتمدوا تفسيره؛ لأنهم يعلمون أنه أخذ تفسيره عن من هو أعلى منه، وهو ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

ما يهمنا هنا هو بيان حرص النبي ﷺ على هداية الخلق، وهاهنا نقطة مهمة جدًا:

من لم ينشأ في قلبه هذا الحرص، وتعامل مع الدين كأنه وسيلة لقتل الناس، أو وسيلة لغلبتهم، أو وسيلة لتدمير الخلق، أو أن الجهاد ليس المقصود به إخراج الخلق -كما قال ربعي بن عامر رضي الله تعالى عنه لما خاطب كسرى: "**إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة**". فالمقصود هو أن نخرج الناس للحق، وأن نخرجهم من الضلال إلى الهدى، ومن الظلمة إلى النور؛ فلذلك يجب تذكير المسلم دائمًا بهذه الفريضة، وهي محبة هداية الخلق والسعي في هدايتهم (**ولأن يهدي الله بك رجلًا أحب إلي من حمر النعم**).

فالمقصود من الدعوة إلى الله هو هداية الخلق، والمقصود من الجهاد إدخال الناس في دين الله عز وجل؛ إما في الحال أو في المآل، والمقصود في الحال أن الناس ربما يسلمون بمجرد عرض الإسلام عليهم؛ لأن المسلمين إذا خرجوا للجهاد خيروا الناس بين هذه الخيارات الثلاثة: إما أن يسلموا، وإما أن يدفعوا الجزية، أو أن يقاتلوا.. فربما دخلوا الإسلام ورضوا الإسلام، وهذا حدث مع أمم كثيرة متعددة، أنهم قبلوا الإسلام، ولا يمكن أن يقبلوا الإسلام دون أن يعلموه؛ فإنهم في ابتداء الأمر يسألون: ما الإسلام؟ وهذا السؤال تردد على ألسنة المدعوين، ما الإسلام؟ يقولون: أن تكونوا مثلنا، ثم يحدثونهم كما حدث جعفر النجاشي عن الإسلام وأجابه عن أسئلته، وهؤلاء ربما يجهلون ما هو الإسلام، أو أن الإسلام عندهم صورة مزورة أو حقيقة غير واضحة، فيسألون: ما الإسلام؟ فيقوم العلماء ويقوم الدعاة ببيان محاسن الدين، وأن أعظم محاسن هذا الدين هو توحيد الله عز وجل، وأنه يعيد العلاقة الصحيحة بين الخلق وبين الحق، بين الخلق وبين الله عز وجل.

فإذًا: ابتداء الأمر هو الدعوة إلى الله، ومحبة هداية الخلق. والذين لا يفهمون الجهاد بهذا المعنى يفسدون ويأتي منهم الشر العظيم.

فإما أن يسلم القوم حالًا، وهذا كما قال الله عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. والله سبحانه وتعالى جعل الحكمة هنا مطلقة؛ لأنه لا يمكن أن تكون هناك حكمة حسنة وحكمة سيئة، بل كون أنها حكمة فيعني أنها حسنة.

قال: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾، والحكمة تقتضي العلم، الحكمة لا يمكن أن تكون بلا علم، والمقصود بها العلم هنا.

و﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أن يذكرهم بالله عز وجل.

والحكمة أمر عقلي، والموعظة الحسنة أمر قلبي؛ ولذلك قيدت.. قد تكون موعظة سيئة؛ كمن يعظ بالجهل، أو يعظ بضلال، أو يعظ بفساد، أو يعظ بالشر، فقيدها بأنها حسنة.

ثم بعد ذلك ينشأ الحوار بين الموافق والمخالف، بين الداعي وبين المدعو، ولذلك: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، الجدال هو من الجدْل، وهو شيئان يُربط بينهما، فهو يقول وأنت تقول، هو يسأل وأنت تجيب وهكذا، ولو دام هذا أيامًا، ولو دام هذا شهورًا، المهم أن يدرك الدعاة إلى الله بأن هؤلاء قد خرجوا عن الحق وأن الحق قد ألزمهم، لا بمجرد البلا غ فقط ولكن كذلك بالنقاش العلمي.

هذه هي قاعدة القرآن ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾.

ونحن نرى أن القرآن يتحدث عن الأنبياء، وعن دعوتهم، وكيف أتوا إلى الأمم من كل الجوانب: بشروهم، أنذروهم، علموهم، دعوهم إلى مكارم الأخلاق، أجابوا على أسئلتهم، صبروا على مخالفتهم.. كما فعل النبي ﷺ، وهو إمام الأنبياء.

فالمقصود ابتداء أن نخرج من قلوبنا الغيظ على الناس.

الله عز وجل بعث نبيه، ثم بعث أصحاب نبيه، ثم بعث الدعاة والمسلمين هداية للخلق، لا من أجل جباية أموالهم ولا من أجل سبي نسائهم ولا من أجل الغلبة عليهم. وإنما هذا كله إذا أعرضوا عن دين الله عز وجل، وفجروا، وقبح دين الله في أعينهم بسبب فساد قلوبهم أو أتوا من الشر الذي يفسد حياتهم كما فعل قوم لوط الفساد الخلقي الاجتماعي، وكما فعل قوم شعيب من الفساد الاقتصادي.

فمن لم يتربَّ على هذا.. من جاء من الشارع ليحمل السلاح دون أن يتربى على وجوب الرحمة على الخلق، فهذا يفسد أكثر مما يصلح.

ولذلك الله سبحانه وتعالى أبان: لا تهلك نفسك عليهم. لماذا؟ لأن عليك الدعوة، ولكن إذا أنت رأيت معرضًا عليك ألا تهتم لإعراضه ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾، ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، فلا تهلك نفسك وراء هذا.

وكذلك هذه الآيات تعلم وجوب الدعوة إلى الله والصبر على الخلق، وأن المقصود من بعثة الأنبياء جميعًا هو هداية الخلق، ولأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا ينبغي أن يكون أحب إليك من الغنائم، وأحب إليك من سبي النساء، وأحب إليك من الملك والسلطان.. فكذلك عليك ألا تنظر إلى الفساد الواقع في الوجود على طريقة بكاء الثكلى، لا، هذا كذلك خطأ.

والذين يلاحقون الناس من أجل أن يشدوهم شدًّا ويحملوهم حملًا إلى الدين وحملًا إلى الصلاة وحملًا إلى العبادة هؤلاء على غير هدي النبي ﷺ.. كان النبي ﷺ يأتي إلى الأقوام فيقول: (هل لكم إلى خير؟)، فإن رفضوا يعرض عنهم. بعض الناس يريد أن يحمل هذا ويأخذه أخذًا إلى الطاعة، لا لا، هذا من الخطأ.

ولذلك الشيخ المصنف استدل بهذا على حرص النبي ﷺ على هداية الخلق، وما كان عليه من الدعوة لهم إلى الله ومن الدعاء لهم بأن يهتدوا، وهذا الذي ينبغي أن يكون في قلوب العلماء.

كذلك نرى في تاريخ أمتنا، وعلى رأسهم سيدنا مُحَمَّد ﷺ، نرى كذلك الحرص على تعليم الناس الدين.. عندما يأتي إليه متعلم يبسط إليه رداءه، وهكذا ينبغي أن يكون العلماء، هكذا ينبغي أن يكون الدعاة؛ إذا جاء الرجل من أجل أن يطلب الحق، يجب عليك أن تشرح له ذلك، ويجب عليك أن تنبسط له، وأن تعطيه الوقت الكافي.

لولا أن العلماء صبروا على تلاميذهم لما انتشر العلم. كان ابن عباس له مجالس متعددة: يجلس في الصباح بعد الفجر من أجل القرآن، ثم بعد الضحى يجلس من أجل الحديث، ثم بعد الظهر يجلس من أجل الشعر، ثم بعد ذلك يتفرغ للناس لما يسألون ويدخلون عليه بحاجاتهم. انظر!! من الفجر إلى العصر وهو يجلس مع الناس؛ يعلم ويصبر عليهم ويجيب على أسئلتهم. وهكذا ينبغي أن يكون العالم وينبغي أن يكون الداعي إلى الله عز وجل؛ لا يترفع على الناس.

ومما أفسد الوجود هو ترفع العلماء وابتعادهم عن مجالس العلم. اليوم -للأسف- إذا أراد الرجل أن يطلب علمًا ربما يمشي به بطريق مقيد من قبل الجاهلية؛ مثلًا كأن لا يطلب العلم في الجامعة إلا من معه شهادة ما أو معه تزكية ما أو معه مستوى معين، وأما بقية الناس فلو ذهبت إلى المساجد فالمساجد خاوية والعلماء هجروا المساجد وذهبوا إلى المعاهد التي تشترط شروطًا خارج مطالب العلم وبعيدة عما ينبغي أن يكون عليه العلماء.

الأصل أن يجلس العالم في المسجد، وأن يبذل العلم لكل الناس؛ يدخل الناس عليه ويسمعون دون قيود ودون شروط، ولكن اليوم هذا الأمر -للأسف- ممتنع، وكثير من الشيوخ يشترطون شروطًا أو يدخلون في مؤسسات تشترط شروطًا معينة.

هذا مما ينبغي أن نهتم له.

هناك أمر آخر في الحديث، هذا موضوع علمي وهو الكلام عن القدر وأنه لا يؤمن إلا من كتب له الإيمان قدرًا في كتاب الله عز وجل، والمقصود أن الكتابة ليست واحدة؛ فهناك الكتابة الأولى حيث أمر القلم أن يكتب قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة أن يكتب كل ما سيكون، هناك كتابة في بطن الأم، هناك كتابة عند العمل؛ فالكتابة ليست مرتبة واحدة، وشرح ذلك في أبواب العقائد وليس هنا

القصد من ذلك: أن الله عز وجل أراد أن يبين لرسول الله ﷺ أن العجز كذلك ليس منك؛ لأن الداعي إلى الله لحرصه يظن أنه حين يعرض عنه المدعو إنما ذلك لنقص فيه؛ إما نقص بيان وإما نقص إخلاص أو ما شابه ذلك. والقرآن يقرر أن هذه المعاني غير صحيحة في القلب ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾، هذا موضوع يحتاج إلى شرح وربما نأتي إليه في ظروف أخرى، ولكن موضوع إيمان الناس بالآيات.. القرآن دل على أن إيمان الناس بالآيات ممتنع وبعيد، وربما يسلم الواحد والاثنين ولكن ليس الأمم.

أول آية أرسلت هي ناقة صالح لثمود، ولم يسلموا.

وبعد ذلك أتت الآيات العظيمة، طلبوا آيات فلم يسلم أحد.

والقرآن في مواطن متعددة تحدث عن مطالب قريش بالآيات كما أرسل الأولون ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ**﴾، هذه قضية انتهت فلا يتم الإيمان إلا بأن هذا هو الحق الموافق للفطرة وينبغي لك أن تؤمن، هذا الذي ينبغي أن نفهمه في هذا.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته وأن يغفر لنا ذنوبنا

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس السابع:

عرضه ﷺ الدعوة على قومه عند وفاة أبي طالب

[20 أكتوبر 2018 – 10 صفر 1440]

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين.

ما زلنا مع كتاب "حياة الصحابة"، وهذا هو اللقاء السابع، وما زلنا مع (حب الدعوة والشغف بها) وتحت فصل (عرضه ﷺ الدعوة على قومه عند وفاة أبي طالب)؛ يقول:

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس، قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته. فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشي أبو جهل –لعنه الله–[1] إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه؛ فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسًا قرب عمه فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول. وتكلم رسول الله فقال: يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها: تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم بها الجزية. ففزعوا لكلمته وقوله، فقال القوم: كلمة واحدة؟ وأبيك عشرًا، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: أي كلمة هي، يا ابن أخي؟ قال ﷺ: لا إله إلا الله. فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، قال: ونزلت من هذا الموطن إلى قوله ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾.

---

[1] هذه من المؤلف.

وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير كلهم في تفاسيرهم. ورواه الترمذي وقال حسن، كذا في التفسير لابن كثير. وأخرجه البيهقي أيضا والحاكم بمعناه وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح.

هذا كذلك مما نراه من حرص النبي على إسلام قومه، وهذا الحديث يبين لنا حال النبي في الدعوة إلى الله.

أما الأمر الأول؛ فنتحدث عن أبي طالب عم النبي ﷺ:

لما مات أبو طالب وماتت خديجة سمي هذا العام: عام الحزن؛ فأبو طالب يحمي النبي، وهو الذي رعاه بعد جده عبد المطلب؛ لأن والده مات وهو في بطن أمه، فلما ولد رعاه عبد المطلب جده –وعبد المطلب اسمه شيبة، ونُسِب إلى المطلب، أي: نسب إلى أخيه الكبير المطلب؛ لأنه لما أحضره من المدينة أركبه وراءه ودخل مكة، فظن الناس أنه عبدٌ قد اشتري، فصاروا يقولون: عبد المطلب، وأما اسمه فهو شيبة الحمد–، ثم لما مات عبد المطلب كفله أبو طالب عمه، وأعمام النبي أحد عشر مع أبيه. تعلمون أن عبد المطلب لما اكتشف زمزم نازعته قريش، فنذر إذا رزقه الله عشرة من الولد أن يذبح أحدهم. وكل الذين تسموا بالأسماء الباطلة الشركية لم يُسلم منهم أحد، إنما أسلم حمزة ﷺ من أعمامه وأسلم العباس، وهؤلاء في أسمائهم لم يعبّدوا غير الله عز وجل.

المهم: يبين لنا هذا الحديث ماذا كان يفعل النبي مع قريش؟، وكيف أن قريش تجاهلته في الابتداء أو تعاملت معه بالسكوت؟، كما يقول الزهري، ثم بعد ذلك لما أوضح تفاصيل دعوته ﷺ، وأن هذا الدين لا يقبل المجاورة، وأن الحق لا يقبل مجاورة الباطل، وأنه لا يمكن أن يظهر الحق جليًا حتى يكشف الباطل كشفًا واضحًا بينًا، لا يجوز فقط أن تقول الحق بل يجب عليك أن تنهى عن المنكر، يجب أن تأمروا بالمعروف وهو الحق ويجب أن تنهى عن المنكر وأن تبين الباطل. فحين يدعو النبي إلى الله فإنه ينبغي أن يكفر بالآلهة الباطلة؛ لأن كلمة التوحيد هذا معناها، (لا إله إلا الله) لا إله ينفي الآلهة الباطلة.

فالزهري يقول بأن النبي كان في الابتداء لا يُعادى؛ لأنه كان يدعو لكلمة لا يرونها منافسة لهم، حتى إذا سبَّ آلهتهم وبيَّن مآل آبائهم بعد الموت –لِمَا ماتوا على الشرك وأنهم إلى جهنم– احمرت أنوفهم، حميت نفوسهم، غضبوا، لم يستطيعوا القبول بها، وهنا تأتي المنازعة ما بين الحق وبين الظروف الإنسانية الأخرى.

الحق قد يعلم، ولكن هناك موانع في قبوله يجب على العبد أن يتجاوزها، وإن لم يتجاوزها أفسدت عليه قبول الحق، ومن ذلك أن يأتي الحق ممن تكره، أن يأتي الحق ممن تحسد.

هناك منافسة.. أبو جهل عشيرته أو عائلته تنافس بني هاشم، فرفضوا لهذا الأمر.

هناك من يرفض لأن في هذا الدين قضاء على شهواته؛ هو ملك أو سلطان والدين يزيل هذا السلطان عنه، كما حدث مع المنافق عبد الله بن أبي.

هناك الهوى، الهوى لمجرد المخالفة، وهناك الإباء كما فعل إبليس؛ ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾.

القصد: أن هناك موانع من قبول الحق بعد علمه، وقريش الله عز وجل كشف نفوسهم ولم يجادلوا في هذا الكشف وأنهم يعلمون الحق ويعرفونه، وحتى يهود يعرفونه، كل المخالفين في قلوبهم أدلة على أنهم علموا الحق ولكن كرهوا اتباعه لأسباب، هذه الأسباب هي التي يجب أن يتجاوزها المرء من أجل الوصول إلى الحق.

في هذه الحادثة العظيمة قريش ذهبت إلى رجل يحترمه النبي لأسباب كثيرة: أنه عمه، أنه رعاه، أنه ربَّاه، وكان يقرّبه، وكان إذا جاء ليجلس إلى النبي يسمح له بأن يجلس على فراشه وقريبًا منه. وكان أبو طالب يحب النبي حبًّا عجيبًا.

ولذلك لما أراد الصحابة أن يستفسروا عن قيمة الأعمال بلا إيمان سألوه: هل كنت نافعًا عمك أبا طالب لما أسداه إليك من معروف؟ قال: (**هو أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة**)، وجاء في حديث: (**يوضع تحت رجليه جمرتان يغلي منهما دماغه وهو أهون أهل النار عذابًا**)، في حديث آخر: (**في ضحضاح من نار**) كما في صحيح مسلم، وهذا دليل أن أبا طالب لم يسلم كما يقول الروافض، فالروافض يقولون أن أبا طالب قد أسلم، وهؤلاء يربطون الدين بالعشائرية ويربطونها بالعائلية، كما الأكاسرة وكما في فارس يعظمون العائلة، العائلة المقدسة كالبقرة المقدسة.

فشكت قريش لهذا الحاني على النبي لعله يسكت النبي، ولعله يمنعه من هذه المجابهة الشديدة بسبِّ الآلهة وعيبها، وسب الآباء والحكم عليهم بأنهم في جهنم، فهذا عندهم أمر لا يطاق. ورأينا أن أبا جهل، هذا الذي كان يسمى قبل الإسلام: أبا الحكم؛ كنته بذلك قريش؛ لأنه كان في منزلة من إذا حكم أمضى حكمه في قومه، إذا مشى لا يردونه، وكان طاغيًا... فلما علم أن النبي سيأتي، فإذا جلس بجانب أبي طالب فربما رقَّ له؛ لقرب البدن يقترب القلب، وربما نظر إلى عينيه فتأثر، أو نظر إلى شكله فتأثر، فقام أبو جهل وأخذ المكان بجانب أبي طالب، فجاء النبي فلم يجد مكانًا في البيت والناس قد اجتمعوا، فجلس عند الباب، ودار هذا الحوار.

الحوار يبيّن أنه لا ينبغي للمرء أن يسكت عن الباطل.

نكتشف هنا مشكلة: إن الذين يريدون أن يقولوا أن الحق متعدد، هؤلاء أهل باطل، على باطل من دين الله، الحق ليس إلا واحدًا، نتكلم عن مصدر الحق، مصدر الحق هو الله ووسيلة معرفته هي النبوة والرسالة فقط، وما يقوله الناس باطل وكل دين غير الإسلام باطل، لا ينبغي أن نتسائل عن هذا. ولذلك أجمع سلفنا وعلمائنا إجماعًا يقينيًا على أنه من صحح دينًا غير دين الإسلام بعد بعثة النبي فهو كافر، ومن لم يحكم على رجل رفض الإسلام –من يهودي ونصراني ومجوسي ووثني– من رفض بعثة النبي واتباع النبي وأن يتسمى بأسماء المسلمين وأبى أن يكون مسلمًا فإنه كافر، وإذا مات إلى جهنم وبئس المصير خالدًا فيها أبدًا، والجنة محرمة على غير المسلم ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

والذين يصححون الدين النصراني، أو يمنعون إطلاق أنهم كفار، أو يصححون دين اليهود، أو يمنعون إطلاق حكم الكفر عليهم، هؤلاء كفار؛ لأنهم ينقضون أصل الدين، ينقضون أصل تميز الشريعة المحمدية بأنها الحق وأن النبي ناسخ لكل الأديان السابقة. ولذلك العلماء قالوا: إذا أسلم النصراني لا يقبل منه فقط أن يقول: لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله، بل يجب أن ينفي ما كان عليه من دين وأن يقول: إن عيسى عبد الله ورسوله، وأن يكفر بالدين الذي كان عليه. وهذا شرط زائد من أجل أن يقرر المعنى الأصلي في (لا إله إلا الله)، لكن بعض الناس ربما يدخلها ولا يعلم معناها، فيقرر على هذا التفصيل، أي: أن يقول أن عيسى هو عبد الله ورسوله.. هذا تفصيل (لا إله إلا الله)؛ لأنهم يقولون هو ابن الله!!

ثم جرى هذا الحوار الذي رأيناه بين النبي وبين عمه، قال: (**إني أريدهم على كلمة**).

هذه الكلمة ليس المقصود بها عند جميع العلماء، حتى الذين ينسب إليهم أنهم يقولون أن الإيمان هو الكلمة في اللسان ولا يشترطون القلب، لا يوجد أحد –كما يقول ابن تيمية، وهو الخبير بالفِرَق– لا يوجد أحد من أهل الملة يقول هذا القول على هذا المعنى. هناك من جعل الإيمان هو الكلمة، ولكن أن يقول بمجرد قول الكلمة دون اعتقاد القلب يكون مؤمنًا ومن أهل الإسلام ويدخل الجنة ويحشر تحت لواء النبي، فهذه لا يقولها أحد؛ لأن كل المسلمين يعتقدون بوجود المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ويناقضون في قلوبهم.

فمقصود الكلمة هي للدلالة؛ لأن المرء حين ينطق الكلمة يلتزم، والعوام يقولون: التزم هذه كلمة، والمقصود بأنها قوة، ولذلك الكلمة أخذت من الكَلْم، وهي قريبة من الكَلْم، والكَلْم هو الجرح، والجرح فيه تأثير. ولذلك قالوا:

وجــــــرح الســــــنان لــــــه التئــــــام   ولا التئــــــام لجــــــرح اللســــــان

الكلمة ميثاق قوة؛ ولذلك حين طلب منهم كلمة، هم يعلمون أن الكلمة التزام، كما يطلب من المرء أن يبيع ويشتري فيعقد بالكلمة ويتزوج بالكلمة ويلتزم بالكلمة.

فهذا المقصود، وليس مجرد أن يُنطق بها، هم يعلمون هذا، فلذلك طلب منهم أن يقولوا كلمة. فقالوا: **"وأبيك عشرًا"**.

هذه الكلمة، قال: (**تدين لكم بها العرب وتدفع لكم العجم بها الجزية**).

هذا اللفظ موهم لبعض المعاني: إذا أسلم العربي من غير قريش كيف يدين؟ يكون تابعًا لكم في الدين؟!

أنتم تكونون أهل السبق، وهم يكونون تبعًا لكم يدينون لكم بالاتباع ﴿**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ**﴾؛ فالذي يسلم في الابتداء يكون إمامًا لمن بعده.

فهذا هو المقصود... يدينون لكم بالتبعية فيما تعتقدون، وليس يدينون لكم بأن يكونوا وراءكم؛ لأننا رأينا أن المسألة ليست بالسبق ولكن بالصدق، ولذلك يقول العارفون: المسألة ليس لمن سبق ولكن لمن صدق، ولذاك رأينا أن أفضل الناس بعد النبي وأبي بكر هو عمر، وعمر تأخر إسلامه عن بعض الصحابة ولكنه سبق بصدقه.

(**وتدفع لكم العجم بها الجزية**).

هذه كذلك تحتاج إلى لفتة سريعة؛ ذلك لأن كل مسلم يصبح عربيًا؛ لضرورة العربية لديه. وهذا رأيناه؛ فإن أئمة العربية الذين حفظوا العربية أغلبهم لم يكونوا من العرب، وعلى رأسهم سيبويه ليس عربيًا، بل كان أبوه يخطئ في نطق بعض الحروف الخاصة بالعربية، واسمه اسم عجمي فارسي، وهكذا بقية الأئمة؛ فالكثير منهم من غير العرب حفظوا العربية، فحينئذ تصبح العجمة هي غير اتباع العربية ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا**﴾.

فليس المقصود أن العجمي يدفع الجزية حتى لو أسلم، لا، المقصود أنه إن بقي على ما هو عليه خرج عن هذه الثقافة وهذا الدين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الدرس الثامن:

عرضه ﷺ الكلمة على أبي طالب عند وفاته

[24 أكتوبر 2018 – 14 صفر 1440]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

ما زلنا مع كتاب "حياة الصحابة" للشيخ مُحَمَّد يوسف الكاندهلوي عليه رحمة الله، وتحت فصل (عرضه ﷺ الكلمة على أبي طالب عند وفاته)، قال:

وعند البخاري عن ابن المسيب، عن أبيه: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: أي عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله ابن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه[1] حتى قال آخر ما كلمهم به: على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: لأستغفر[2] لك ما لم أنهَ عنك، فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، ونزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

ورواه مسلم.

وأخرجاه من طريق آخر عنه بنحوه، وقال فيه: فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى قال آخر ما قال: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: أما لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله يعني بعد ذلك فذكر الآيتين.

---

[1] كذا في الأصل، وفي البخاري: يكلمانه.

[2] كذا في الأصل، زفي البخاري: لأستغفرن.

أيها الإخوة الأحبة:

تقدير الهداية أمر رباني، لم يعطه لأحد من خلقه، ف(من المؤمن ومن الكافر؟ من الذي يختم له بالإيمان ومن الذي يختم له بالكفر؟) هذه بيد الله وحده، ولا يعلم بها أحد إلا الله سبحانه وتعالى؛ لأنها من أمور الغيب، والمطلوب من المؤمن أن يدعو إلى الله، فهو لا يدري متى تقع الهداية على القلب ومن يعرض، ولا يجوز لأحد أن يتحكم في هذا الباب. وسنرى بعض الأحداث أن بعض الصحابة ظن أن فلانًا لن يسلم أبدًا، وستأتي القصة في حلقات قادمة، ومع ذلك أسلم هذا الرجل.

قيل عن عمر: **سيسلم حمار الخطاب قبل أن يسلم عمر بن الخطاب**، وأسلم عمر بن الخطاب.

وهناك ناس تظن أنهم من أقرب الناس إلى الدين، كما نرى في حادثة أبي طالب؛ فهذا رجل عظيم في قومه، منصف في كلامه للنبي ﷺ، حتى إنه في هذه القصة –وجاء التوسع فيها في قصص أخرى ذكرناها في الدرس الفائت– لما جاءت قريش تشكو إليه عند وفاته؛ لعله قبل وفاته يزجر أو يمنع النبي ﷺ من مواصلة دعوته، فالنبي ﷺ لما رأى منه تقربًا وسهولة في مدح الدين حتى قال أبو طالب للنبي ﷺ: والله ما طلبت منهم شططًا، أي: ما طلبت منهم أمرًا كبيرًا أو أمرًا عجيبًا أو أمرًا ظالمًا أو أمرًا كذبًا؛ لأن أبا طالب يعلم عن ابن أخيه أنه لم يكذب قط ولا يعرف الكذب، وهو معصوم من الكذب عليه الصلاة والسلام.

فنحن لا ندري من الذي يسلم ومن الذي لا يسلم، وليس هذا بأيدينا، ولا نقدر أن نسأل: لمِ؟.

نوح عليه السلام قال لربه سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، يعني هذا نوح عليه السلام لا يعلم هذا السر الإلهي في من هو يستحق الهداية ومن لا يستحق الهداية، ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، هذه الكلمة الربانية قالها لإمام عظيم ونبي من أولي العزم مكث في قومه يدعوهم تسعمائة وخمسين سنة، فلا ينبغي لله عز وجل أن يُجادل وأن يقول له: لمَ؟، بل مقامك التسليم، وأنت مع يقينك أن الله عز وجل حكم عدل، وأنه حكيم في إنزاله من يستحق الهداية ومن لا يستحق الهداية وأنه عدل يعطي الهداية لمن يستحق ويمنعها ممن لا يستحق.

وحين يقع الغلط يقع الحسد.. اليهود حسدوا أن تقع النبوة على رجل من غير ملتهم أو من غير عشيرتهم –من غير بني إسرائيل–، وزعموا أنه أخذ عليهم الميثاق أن لا يسلموا إلا لرجل من بني إسرائيل، وقد كذبوا، فحسدوا النبي ﷺ أنه

جاءت النبوة إليه.. إلى العرب، إلى إسماعيل.. فحسدوا هذا، والله رد عليهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، رد على كل أحد.

قيل لهم: جاءتكم الآيات. قالوا: لن نؤمن لك حتى تجعل لنا ما للأنبياء من دين وما للأنبياء من اصطفاء، فالله رد عليهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

فالقصد من هذا: أن أمر الهداية هذا سر رباني.

القلوب أوعية، الله يعلم حقيقتها، وليس ظاهر الأمر في العمل الطيب يعني أن قلبه يستحق الهداية بالتوحيد، وليس شدته وبغضه يعني أن قلبه غير مستعد للتوحيد، هذا أمر قدري.

الله عز وجل أجّل أبا سفيان حتى أسلم، وقتل أبا جهل وأبا لهب في بداية القتال بين المسلمين والكافرين في معركة بدر.

فلا ندري من الذي تحصل له الهداية ومن الذي لا تحصل له الهداية. ومن هنا؛ فلا يجوز لأحد أن يجزم أن فلانًا لن يغفر الله له؛ لأن هذا من التألي على الله، (**رجل قال: والله لا يغفر الله لفلان. قال: من المتألي علي؟ أشهدكم أني قد غفرت لهذا الذي قال لا يغفر وعذبت هذا**)، لأن هذا دخول في فعل الرب عز وجل وليس في أمرك.

ومن هنا فكان النبي ﷺ يحرص أشد الحرص على عمه، لماذا؟ لِمَا أحسن إليه، والنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾؛ فهو يحب لعمه أن ينجو من النار وأن يدخل الإسلام، حتى عند وفاته، ليس طمعًا لأنه بإسلامه سينتفع به... هذه قضية يجب علينا أن نفهمها: نحن ندعو إلى الله لا لأجل أن ينصر هذا المهتدي هذا الدين، بل من أجل أن ينجو من النار.

النبي ﷺ دخل على الطفل اليهودي وهو ينزع وهو لا يرجو حياته، قال (**قل: لا إله إلا الله**)، فقط من أجل أن ينجو من النار.

وأبو طالب هنا في لحظة النزع الموت لا يرجو منه شيئًا بعد وفاته، وإنما يريد به (**أحاجج لك بها عند الله**)، يريد أن يحتج بها.

العلماء قالوا: لماذا لم يقل (مُحَّد رسول الله)؟ يعني: (لا إله إلا الله مُحَّد رسول الله)؟ لأنها أمر مُضمَّن. يعني: لا ضرورة للتفصيل، فالحالة حالة موت، والعرب تفهم؛ تفهم الكلام بلوازمه، تفهم الكلام بمنطوقه، تفهم الكلام بمقتضياته، تفهم هذا الكلام.

فلذلك لو قال: لا إله إلا الله، من الذي أعلمه (لا إله إلا الله)؟ هو مُحَّد، رسول الله. ولذلك طلب هذه الكلمة ليحاج بها عند الله عز وجل.

وكذلك يُعلم أن عند الموت توبة عامة (**تقبل التوبة ما لم يغرغر**)، فيمكن أن يكون المرء على فراش الموت ولم يغرغر فتقبل توبته. ما معنى (يغرغر)؟ أي: تصل الروح إلى الحلقوم؛ لأن الروح تنزع من الإنسان أول ما تنزع من قدميه، وتنزع هكذا حتى تصل الروح إلى الحلقوم، فتخرج من الرأس فيتبعها النظر. وأنتم ربما رأيتم كيف يموت المرء، تشخص العين إلى شيء يخرج منها، وهذه آخر لحظات الإنسان عند موته.

فهنا (**أحاج لك بها عند الله**) دل على أن المرء لو أسلم أو تاب على فراش الموت، قبل أن تصل الروح إلى الحلقوم، إلى الغرغرة، فإنها تقبل منه.

فأبو طالب أخذته قوة العشائرية وقوة العائلة، فلذلك صار التنازع: إما أن تقول: لا إله إلا الله، على ما تعلم أنها الحق -وهو يعلم أن دين مُحَّد خير البرية دينًا- أو أن تتبع عبد المطلب، فصار هنا النزاع.

هذا صراع الإرادات.

الحق لا يتكون إلا بأن يخرج المرء من الباطل كله، وأن يخرج من كل نوازع الباطل. فهذا الصراع ما بين الحق وبين اتباعه لأبيه، لعبد المطلب... هذا اسم كبير له حضور في قلبه، الآباء أمر عظيم معظم عندهم، فلذلك في آخره قال: "**على ملة عبد المطلب**"، وهي ملة تخالف ملة مُحَّد ﷺ.

ملة عبد المطلب هي ملة، وهاهنا نرى أن الموضوع يتعلق بالملة. يعني: ربما يسأل السائل: هل أبو طالب على ملة عبادة الأصنام وهو لا يؤمن بها؟ العبرة بالدخول؛ فربما المرء يكفر بكل هذا الدين ولكنه يضع نفسه في ملة أهل هذا الدين فيخرج من الحق. ولذلك لما جاء اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عن أسئلة لا يعلمها إلا نبي فأجابهم ﷺ، فقالوا: نشهد إنك لرسول الله. أي: شروط النبوة هذه لا أحد يشكك فيها، لكن انتهى الأمر بـ(**ما الذي يمنعكم من اتباعي؟**) الدخول في ملتي، أن تكونوا أتباعًا لي؛ لأنه لا يصح أن يقول المرء: أنا مسلم في هذا الزمان وتابع لعيسى..

لو كان عيسى حيًا أو موسى حيًا ما وسع هؤلاء الأنبياء إلا اتباع النبي ﷺ ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾، فشرط على الأنبياء إذا جاء النبي وهم أحياء أن يتبعوه.

اختار هو ملة عبد المطلب فمات عليها، فهذا شأنه، ولكن انظروا!! هنا يأتي الباب، انظروا إلى حرص النبي ﷺ على إسلام هذا الرجل!! فالآن أنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، والمقصود هنا الهداية التوفيقية.

الهداية أنواع:

أولًا: هناك هداية قدرية ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾؛ الله هدى اللسان لأن يذوق، هذه هداية قدرية ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، الله أعطى السمع أن يسمع وأن يدرك الأصوات، أعطى العين هداية الرؤية وأن تدرك المرئيات.. فهذه هداية.

الهداية الثانية: هي المتعلقة بالتشريع ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ الله سمى النبي هاديًا، لماذا؟ لأن تشريعه يوصل إلى المطلوب، إلى الجنة وإلى رضا الله عز وجل.. هذه هداية تشريعية، أما الهداية التوفيقية فهي ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

ثم لما مات جعل يستغفر له، فالله عز وجل نهاه عن الاستغفار للمشركين، وكذلك يفسر هذه الآية في النهي عن الاستغفار للمشركين أن النبي ﷺ استأذن أن يزور قبر أمه؛ لأنها ماتت بالأبواء قرب المدينة، فيمكن أن يزورها لقرب المسافة، فأذن الله له أن يزور قبرها.

وفي ذلك دليل على جواز زيارة قبور المشركين من أجل العبرة والعظة لا الدعاء. وأما الزيارة للمؤمنين فللعبرة والعظة والدعاء.

فاستأذن أن يزور قبرها فأذن له، واستأذن أن يستغفر لها فلم يأذن له؛ لأن الاستغفار هو طلب المغفرة، وهؤلاء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

المعاصي تغفر.. محل الأمل والرجاء الإلهي أن يغفر الزنا أو أن يغفر شرب الخمر، ولكن أن يموت المرء وهو مشرك بالله عز وجل فهذه لا تغفر، ومحرم على الجنة أن يدخلها مشرك. ولذلك الله سبحانه وتعالى منع النبي ﷺ من أن يستغفر؛ لأنه لا يصل إليهم. ولكن هل النبي ﷺ يشفع لبعض المشركين في النار بأن يخفف عنهم العذاب؟ الجواب:

نعم، هذه شفاعة جزئية غير الشفاعة العظمى في بدء الحساب، وإنما شفاعة لبعض المشركين في جهنم بأن يخفف عنهم العذاب، كما يشفع لعمه أبي طالب بأن يخفف عنه العذاب.

فالمقصود من هذا: المرء عليه أن يسعى أن يدعو أقرب الناس إليه، وأن يوصل الخير إلى أقرب الناس إليه. أول شيء أن يوصل الخير إلى إلى أهله ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

الخير توصله للخصوم أو لأهل البعد ولا توصله للأقربين؟! تجد الشيخ يتكلم ويصلح الناس ويعظهم وبيته يحترق بالنار؛ أبنائه لا يصلون، أبناءه وبناته لا يلتزمون بدين الله، زوجته لا تلتزم بالصلاة، ولا يهتم، وهو مهتم بغيره، ربما يريد أن يصلح العالم وهو لا يصلح نفسه ولا يصلح من يحيطه!!! لا، أولًا عليه أن يهتم بالدعوة وبإصلاح وتعليم نفسه ومن يعول، وهذا دليل الصدق؛ لأن هناك فرق بين الأخلاق الحقيقية والأخلاق المزورة (الدبلوماسية يسمونها)، فالأخلاق الحقيقية أول من يلتزم بها هو ويلزم بها من يعول، وأما الأخلاق الأخرى فإنه في بيته من أسوأ الخلق وعند الناس يظهر لهم أنه من أحسن الخلق!! الأصل أن تبدأ بمن تعول، والنبي صلى الله وسلم حرص على أهله، ولذلك أعظم الناس هم أهله، أعظم الناس في الدين هم أهله عليه الصلاة والسلام.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

الدرس التاسع:

إنكاره ﷺ أن تترك الدعوة إلى الله (1)

[25 أكتوبر 2018 – 15 صفر 1440]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

ما زلنا في قراءة كتاب "حياة الصحابة" للشيخ مُحَمَّد يوسف الكاندهلوي، وهذا هو اللقاء التاسع، وتحت باب (إنكاره ﷺ أن تترك الدعوة إلى الله)، ، يقول الشيخ رحمه الله:

وأخرج عبد بن حميد في مسنده عن ابن أبي شيبة بإسناده، عن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: اجتمع قريش يومًا، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه. فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة. فقالوا: ائت يا أبا الوليد. فأتاه عتبة فقال: يا مُحَمَّد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ. قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك. إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا وأن في قريش كاهنا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى. أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلًا، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا. فقال رسول الله ﷺ: فرغت؟ قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ...﴾ إلى أن بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. فقال عتبة: حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: لا. فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟

قال: نعم، ثم قال: لا، والذي نصبها بنية ما فهمت شيئًا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويلك، يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال؟! قال: لا والله ما فهمت شيئًا مما قال غير ذكر الصاعقة.

هذا الخبر من سيرة النبي ﷺ أمره عجيب وفيه فوائد عظيمة جدًا:

أولًا: بلا شك أن هذا الخبر دال في مجموعه على أنه حوار في ابتداء الدعوة؛ لأن الدعوة امتدت في مكة المكرمة ثلاثة عشر عامًا، والذين أسلموا من قريش إنما أسلموا في بداية الدعوة، ثم بعد ذلك سكنت الدعوة، فاهتم النبي ﷺ أن يدعو خارج قريش وقد استقر من أسلم ومن كفر، فالمؤمن يزداد بإيمانه والكافر يزداد بكفره وعتوه وإجرامه، فالنبي ﷺ صار يبحث عن الأبواب الأخرى؛ كما زار الطائف وغيرها، وكما كان يقوم بالدعوة في مواسم الحج لعله يجد من ينصر هذا الدين، حتى وقع الفضل الإلهي على أهل المدينة المنورة بقدوم النبي ﷺ عليها.

فهذا الخبر يوضح أن الناس يريدون أن يستطلعوا ماذا يريد وماذا يقول، وأن يكتشفوا منه أي شيء يريد؛ فكانوا يرسلون له الرجال ليختبروا ما يمكن أن يدخله في تصنيف من تصانيف عقولهم: هل هو ساحر؟ لأنهم يرون أنه يؤثر في الناس فيقلب عقولهم، أثّر على الأبناء وعلى الجواري وعلى النساء، أثّر عليهم واتبعوه وتعلقوا به تعلقًا عجيبًا.. لا يمكن أن تقع لأحد إلا أن يكون ساحرًا يغير ما في القلوب بقلبها من البغض إلى الحب ومن الرفض إلى القبول. أو أن يكون كاهنًا؛ هذا الكاهن الذي عنده أخبار الأولين، لما يتلو عليهم من قصص ويتلو عليهم من أخبار. أو كاهن عنده القدرة أن يقول أشياء غيبية؛ لأنه يتحدث عن غيب، عن ملائكة، وعن جنة وعن نار... فكانوا يريدون استطلاع: من هذا الرجل؟ أي شيء هو؟.

رأينا هذا الحديث تكرارًا في بعض الأمور لما أخبرت عنه الأخبار الأخرى التي تقدم ذكرها، وهو أن النبي ﷺ سب آلهتهم وعابها وسب آبائهم.

السب المقصود هنا ليس السب بمعنى سوء اللفظ، ولكن أن يبين أنهم في جهنم؛ وهذا يؤذي. وللذكر: إن مما يؤذي الكافر كثيرًا أن تخبره أن مصيره إلى جهنم.. يرضى منك الكثير مما تقوله، حتى نقض دينه علميًا، ولكن إذا قلت له: إنك إن مت ذهبت إلى جهنم، هذه تشعل فيه النار؛ فإما أن يخاف ويرتدع وتنشأ عاطفة الحق في قلبه فيهتدي، أو يزداد بغضًا لك وحرصًا على قتلك وإزالتك.

ومن هنا؛ فموضوع تبشير الكافر بالنار أو إنذار الكافر بالنار مسألة من مسائل الاعتقاد التي لا يجوز التنازل عنها، ولا يجوز لأحد أن يداري فيها، يقول: أين يذهب النصارى؟ أين يذهب اليهود؟ لا ندري، أو يقول: نحن لا نجزم لأحد بجنة أو نار.. يتعامل بقواعد المسلمين مع الكفار، (لا نجزم لأحد بجنة أو نار) هذه للمسلمين، هذا النص للمسلمين، المسلم إذا مات لا يجوز لك أن تجزم ما لم يأت النص به، كما جاء في الصحابة ﵃ أو جاء فيمن بعدهم كأويس القرني، ولكن لا يجوز لأحد أن يقول عن كافر اليوم: لا ندري، ربما يكون محسنًا، ربما يكون مسلمًا في قلبه!!، هذا من الباطل، هذا من البدع، بل هو من الضلال والانحراف، وربما يصل إلى الكفر.

فتبشير الكافر بالنار وإنذاره في الدنيا والآخرة، وفي صحيح مسلم (**أينما مررت بقبر كافر فبشره بالنار**)، هذه قضية مهمة جدًا، ونحن نؤكدها؛ لأن نسبية الحق بدأت تنتشر، وهؤلاء دعاة ما يسمى بالاعتدال –وهو في الحقيقة الفساد والضلال– يزعمون أنه لا يجوز أن يكفّر الكافر وألا يتبرأ منه وألا يعلن أنه من أهل النار وأنه إذا قوتل فإن دمه وماله وأهله مباح لأهل الإسلام!! هذا للأسف منتشر، وهناك مشايخ بدأوا يقتنعون بهذا ويلبسون العمائم ويقولونه للناس!! وهؤلاء بلا شك أنهم نقضوا أصل الدين والشريعة وأتوا الكفر من أعظم أبوابه، هؤلاء يكفرون، كل من قال هذه الكلمة هو كافر عينًا؛ لأن هذا من التلعب بدين الله عز وجل، وهم يعلمون النصوص اليقينية في هذا الباب.

المهم أن قريش اختارت رجلًا، وهو عتبة بن ربيعة؛ رجل من كبارهم، يلقب بأبي الوليد، واختاروه لعقله وحكمته وإدراكه وتنوعه ثم بزياراته –زار أممًا أخرى: جلس مع قيصر، ذهب وجلس مع الملوك، وجالس الناس، وجالس الشعراء، وجالس السحرة، وجالس الكهان–؛ يريدون أن يروا ماذا يقول فيه. فذهب وجلس مع النبي ﷺ.

أهل الدنيا ينظرون إلى أن كل مطالب الناس: أن يكون ملكًا، أن يكون صاحب مال، أن يريد النساء.. كما يرون في الشعراء. ماذا يريد الشعراء؟ يريدون من المال، يريدون المناصب، يريدون النساء. ماذا يريد الكهان؟ مثل ذلك. ماذا يريد السحرة؟ ﴿**أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ**﴾ السحرة يطلبون الأجر.

فرفض النبي ﷺ هذا، وجعله يكمل كلامه.

المسألة المهمة أن أبا الوليد هذا جعل يسأل أسئلة لم يجاوب عنها النبي ﷺ، والصمت أعظم جواب في هذا؛ لأن الجواب حينئذ لا يعبر عن تمام الحقيقة ويفسد الموضوع.

حقيقة: كثير من الأسئلة التي يطرحها الخصوم ليست من العلم في شيء.

المسألة لا تتعلق بمن أفضل: أنا أم أنت؟، وهذه نجدها حتى في مسائل العلم؛ حين تعلم امرأً مسألة علمية، وأنت تعلم أن هذه المسألة خالفك فيها فلان من العلماء، فيأتيك المخالف والمخاصم فيقول لك: من أعلم، أنت أم الشافعي؟ أو: من أعلم، أنت أم فلان؟ وكل جواب على هذا السؤال خطأ؛ لأنه لا يجوز لك في دين الله أن تقول: أنا أعلم من فلان، لا يجوز.. موسى عليه السلام لما قام خطيبًا في بني إسرائيل، قالوا له: من أعلم الناس؟ قال: أنا، فالله أرسله هذه الرحلة الميمونة المباركة إلى مجمع البحرين ليرى من هو أعلم منه وهو الخضر. فلا يجوز لأحد أن يقول: أنا أعلم من فلان، لا يجوز، وربما يكون أعلم منه في باب وذاك الرجل أعلم منه في أبواب.

لو قال: هو أعلم. فإذًا لماذا تخالفه؟ فينتهي النقاش.. وهذا ينهي الحق، والمقصود هو الوصول إلى الحق لا إنهاء الحق.

فلذلك جعلوا يسألُه: **"أنت خير أم عبد الله؟"**.

ماذا يجيبهم النبي ﷺ؟ هل الصراع هنا يتعلق بمن هو خير أو من هو دينه الذي الحق؟ أدين عبد الله أم الدين الذي جاء به النبي ﷺ؟ دين عبد المطلب خير أم الدين الذي جاء به النبي ﷺ؟ هذا تعليم لنا أن لا نجيب على كثير من الأسئلة، والله عز وجل قال: ﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾، والحكم جواب. إما أن تعرض، والإعراض هنا ليس ضعفًا بل هو بيان حال السؤال وأنه ليس من العلم في شيء وليس هو الموضوع.

أنت تريد، كما يقول المناطقة، مصادرة الموضوع؛ أي: إزالة البحث فيما يدور حوله الخلاف. فلذلك النبي لم يجب، بل سكت.

أنت خير أم فلان؟ إذا كانوا هم خير منك... باعتبار أنهم آباء النبي –عبد المطلب هذا والد النبي ﷺ، جده الأكبر، ووالده عبد الله– والنبي ﷺ أكرم من أن يذم هؤلاء من جهة أبوته ومن جهة نسبه، بل النبي ﷺ في غزوة حنين افتخر (**أنا ابن عبد المطلب**)، فجعل هذا الانتساب إليه شرفًا، والانتساب إلى آباء عظام حتى ولو كانوا كفرة هذا من الشرف الذي يفتخر به الناس. فلذلك؛ النبي لم يجب، وهذا تعليم.

أؤكد: لا تجب كل الأسئلة، بل قال علماؤنا: من أجاب على كل سؤال فهو أحمق. هناك أسئلة تُسأل من أجل الانحراف...

من أصول القضاء قديمًا ألا يفتي القاضي؛ لأنه إذا أفتى التزم به في القضاء، وهناك مسالك للقضاء لا تتعلق بالفتوى. فأُرسل لأحد القضاة سؤال من رجل، من أجل أن يمتحنه، قال: أريد فتوى، فقال: اذهب إلى من أرسلك وقل له: القاضي لا يفتي.

هناك كثير من العلماء سكتوا لم يجيبوا، خاصة إذا كانت الأسئلة تتعلق بأنواع من الباطل، كما هذا السؤال، والأسئلة التي ترد كثيرة جدًا في علم الجدل المبتدئ، أسئلة كثيرة لا تجب عنها، أعرضْ عنها.

فلم يجب النبي ﷺ.. ثم عرضت عليه المناصب، عرضت عليه الدنيا، والنبي ﷺ إنما يريد منهم الهداية.

انظر!! استمع النبي ﷺ إلى كل ما يقوله المخالف، هذا أدب عظيم، لا تقاطعه.

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، هذه الآية عليكم أن تتذكروها أنها قيلت لرجل سجين معهم، يخبرهم عما يأكلون ويحسن إليهم، حتى إنه من المحسنين في السجن.

عليك أن تتعلم كيف تستوعب الآخر، ومن ذلك أن تستمع له، أن تبسط إليه وجهك... أنت تناظر مرات طلبة علم، فإذا تكلمت جعلوا يضحكون ويتحركون ويستهزئون ويقلبون أيديهم، هذا من تمام الجهل ومن تمام الظلم. إذا تكلم الذي أمامك -مهما كان- استمع إليه، ألقِ السمع، أعطِهِ الاحترام؛ ليشعر أنك تحترم ما يقول، ثم بعد ذلك كُرَّ على ما يقول بالعلم وبيِّنْ ما يقول.

فحينئذ النبي ﷺ قال: (**انتهيت؟**) فلما علم أنه انتهى بدء يقرأ عليه من سورة فصلت.

وسورة فصلت سورة عظيمة جليلة، مهولة في مطلعها ﴿**حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**﴾؛ حديث عن القرآن. سورة فصلت، كما عنونتها في بعض ما كتبت، عنوانها: مراتب المنكرين للقرآن مع القرآن.

هناك مراتب للمنكرين وليست مرتبة واحدة، فصلت هذه السورة مراتب الناس.

وانظر إلى هول ما وقع في قلب عتبة وهو يسمع، حتى أذهله عما قيل فيها من غير هذا الكلام ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾

سبحان الله!! هزَّت قلبه حتى أنه نسي وذهل عما يقول. قال: "**ما علمت إلا أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**".

ومن هنا؛ وهذا له شرح، ليس كل أحد يخاطب بالقرآن، وإنما يخاطب بما يؤثر فيه. وقريش في ذلك الوقت هم أئمة البيان، والقرآن خاطبهم بأعظم بيان، وهو المعجز الذي أدركوا أنه معجز؛ فلذلك وقع على قلوبهم هذا الموقع العظيم الذي أدركوا به أن هذا الكلام هو كلام الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله.

الدرس العاشر:

إنكاره ﷺ أن تترك الدعوة إلى الله (2)

[23 نوفمبر 2018 – 15 ربيع الأول 1440]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

ما زلنا نقرأ من "حياة الصحابة" للشيخ مُحَمَّد يوسف الكاندهلوي، وكنا قد وقفنا عند بعض فوائد حديث عبدُ بن حميد الذي رواه في مسنده عن ابن أبي شيبة بإسناده عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: **اجتمع قريش يومًا، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه.**

نحن قرأنا هذا الأثر من قبل، ومن أعظم الفوائد فيه –أيها الإخوة الأحبة– أن اقتران الحق بالباطل مُذهبٌ للحق، وأي محاولة للتنازل عن الحق إنما هي تنازل البشر عن غير حقهم.. يجوز لك أن تسقط حقك، بل هذا من الإحسان والفضل، لو أن رجلًا أساء إليك فيجوز لك أن تسقط هذا الحق وتسامحه، ولكن حق الله عز وجل، وأنت عبد له، لا يجوز لك أن تسقطه.

والذين يحاولون مزج الحق بالباطل، هؤلاء يُذهِبون الحق كله عن الله عز وجل؛ والله لا يقبل الشرك، ولا يقبل الباطل.

الحق إذا اجتمع مع الباطل صار باطلًا.

أنا أتكلم عن قضية مفاصلة المشركين ومعاداتهم.

الذي يُدعى إليه اليوم على قدم وساق، مما يسمى (اجتماع الأديان ضد الإرهاب) أو ما يسمى بـ(اتحاد الأديان) أو بما تسمى بمؤسسات (مؤمنون بلا حدود) وغير ذلك، إنما يراد منها إماتة الحق؛ وذلك عن طريق نشر ما يسمى بنسبية الحق (لا يجوز لأحد أن يزعم امتلاك الحق الكامل)، وهذا من أكذب الكذب في هذه الدنيا.

نحن نعلم أن الله عز وجل ابتعث رسوله وكان أول كلمة دعا إليها رسول الله ﷺ، وهي آخر كلمة على المرء أن يموت عليها: لا إله إلا الله، وهذه الكلمة تعني في الابتداء النفي، يعني عليك أن تنفي الآلهة الباطلة وتثبت الألوهية لله عز وجل. فكان من سيرته ﷺ حين دعا قريشًا أن أبطل دينهم، والله عز وجل أنزل: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾؛ فهذا هي سمة الحق.

وكذلك من عوامل انتشار الحق: المفاصلة مع الباطل، وشدة تمسك المرء بالحق وإعلانه المفاصلة مع الباطل. وذكر هذا الزهري من قبل، وأظن أني قد ذكرته؛ ذكر أن قريشًا لم تكن تعيب على رسول الله ﷺ شيئًا من دعوته حتى سب دينهم وعاب آلهتهم وحكم على آبائهم بالنار.

ومن خلال تجربتي ورؤيتي لما يُكتَب؛ يمكن لك أن تقول عن دينك أي شيء بشرط أن لا تسبَّ دين الآخرين، وبشرط أن لا تحكم على موتى دين الآخرين بأنهم في النار.. إذا فعلت ذلك فكأنك تمسك النار وتلقيها على وجوههم، كأن لفح النار يخرج على وجوههم فيحرق قلوبهم... وبهذا يتم المعاداة بين الحق والباطل.

الناس يهربون من إبانة الحق كما هو وحكم الحق بالباطل كما هو، كما حكم الله عز وجل أنه باطل وأن الذي يدين بغير الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وأن الجنة محرمة على كل رجل لا يقول: لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله، وأنه (ما من يهودي ولا نصراني يسمع به ثم لا يؤمن إلا كان من أهل النار)، وقوله ﷺ: (أينما مررت بقبر كافر فبشره بالنار)، وغير هذه الأحاديث التي تبين مفاصلة المؤمن للكافر.. هذه يهرب منها الناس؛ لأنهم يريدون الوحدة على دَخَن، وعلى غير الإسلام.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، هؤلاء هم فقط.

عندما تصبح الرايات غير إسلامية ما الذي يقع؟ تستبعد الرايات الأخرى.

عندما يريدون (الوطنية) مثلًا كأمر جامع للناس تحت قانون شركي وطاغوتي واحد، يُستبعد الإسلام. وهم لا يستطيعون استبعاده، فماذا يفعلون؟ يميعونه، يؤولونه ليلائم الباطل.

وكذلك هناك أناس لا يريدون النزاع بين الحق والباطل، يريدون السلام كما يزعمون، وتحت دعوة السلام لا بد من المواءمة بين الحق والباطل. والإسلام بريء من هذا، الإسلام يدعو إلى اعتقاد المسلم أنه الحق، وأن دينه هو الحق، وأن

المسلم هو الذي سيدخل الجنة دون سواه، وأن هؤلاء إلى النار وأنهم كفار.. وهذا يؤجج الغضب عند المخالف، فيقع الصراع، وحينئذ تقع المدافعة على أساس: هذا فريق إيماني وهذا فريق كافر ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾؛ فيبدأ الصراع بين الحق والباطل.

والله كتب المداولة بينهما "يوم نساء ويوم نسر"، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، وفي قراءة أخرى: ﴿قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾؛ فتقع المدافعة بين الحق والباطل، وحينئذ شعار أهل الإسلام: (قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار).

ولا يضر المسلم أن يهزم في معركة؛ لأن هذه سنة الأنبياء، وهذه سنة الصراع والتداول في هذا الوجود. ولكن لا بد من قيام الصراع في الوجود. والصراع الذي يقوم بين الناس من أجل المادة، من أجل الطعام، من أجل الشراب، من أجل الملك، من أجل السلطان.. هذه يكفر بها الشارع، ولا يهتم بها.

كل صراع يجب أن يبقى على أساس هذه الكلمة، كلمة التوحيد. وبعد ذلك قد يقع صراع داخل أمة الإسلام على أرض، على مال.. فهذا له أحكامه، ولكن أساس التجمع في الوجود، أساس الصراع في الوجود، أساس الغاية في الوجود هو الصراع بين الحق والباطل.

من هنا؛ قريش حرَّها وأغضبتها كلمة النبي ﷺ... أين آبائنا؟ في النار، من نحن؟ أنتم كفار، وسبَّ هذه الآلهة: إنها لا تنفع ولا تضر، آلهة!!، سبَّ هذه الآلهة فغضبوا.. من هنا وقعت المفاصلة، وأنتم تعلمون سيرة النبي ﷺ بينه وبينهم حتى تمت الخاتمة بدخول النبي ﷺ مكة، وهذا هو شأن الحق مع الباطل.

أنا أنبه على كلمة: كل جهود الكفرة اليوم منصبة لإماتة الصراع بعيدًا عن الدين.

إذا كان الصراع من أجل الدين فلا يجوز، ونحن نحب بعضنا، المسلم يحب الكافر ويرضى عنه ولا يسب دينه ويحترم دينه.. هذه كلمات مموهة كاذبة تعود على إيمان المؤمن بالإبطال؛ فالذي يصحح دينًا غير دين مُحَمَّد ﷺ كافر، ومن لم يحكم على الكافر حين يموت وهو على غير الإسلام أنه كافر وأنه في النار فهذا يؤدي به إلى الكفر والخروج من الملة، هذه قضايا خطيرة، ومن رضي دينًا غير دين الإسلام يموت عليه أحد غير المسلمين فهذا كذلك يكفر؛ لأنه رضي بالكفر. حتى إن أهل العلم ذكروا في كتب الردة أن لو جاء رجل كافر ليسلم عند شيخ، وقال له: علمني الإسلام، فقال له: انتظر دقيقة أو انتظر لحظة، يكفر؛ لأنه رضي أن يبقى على الكفر لحظة، وربما مات فتحمل وزره يوم القيامة، بل علّمه هذا الدين..

ولذلك غضبت قريش.

وهذا يبين لنا البدايات.

انتبهوا! يوجد في ديننا العمل بالمصلحة الشرعية المضبوطة، لكن في موضوع العقائد لا مصلحة إلا مصلحة واحدة وهي إظهار الحق، هذه المصلحة التي لا يجوز للناس أن يتلعبوا بها، ولا يجوز أن يزاودوا عليها، ولا يجوز أن يتنازلوا عنها، وهي مصلحة إظهار الحق. من أنت؟ وما دينك؟ وما هذا الدين؟ وما حقائقه؟، كل المصالح تهون وتذهب وتضعف أمام مصلحة إظهار التوحيد. هذه قضية مهمة جدًا في هذا الباب.

ولذلك؛ نرى في هذا الأثر الذي بين أيدينا –وهو في لحظة استضعاف، بل في بداية الدعوة... انظروا إلى البيئة المؤثرة في هذا الباب!! هؤلاء أهله أعمامه، قرابته، عشيرته، وهو يعاديهم، بعث إليهم قبل أن يبعث إلى غيرهم، ففرّق الناس على أساس الإسلام والكفر، فرّق الناس على أساس اتباع مُحَمَّد واتباع قريش، صار الناس فرقتان على طريقة جديدة مختلفة عما عليه الناس.

من هنا؛ كان من تمويه قريش وتلعبها أن أرادت أن يتنازل هذا النبي عن الحق الذي معه ولو قليلًا، يتوقف عن سبِّ الآلهة وعيب الأديان، يتوقف عن الحكم على آبائهم بالنار؛ فبدؤوا يساومونه في هذا الأمر. والنبي ﷺ بشر، وربما وازن بينه وبين نفسه... في كثير من القضايا والمواقف القرآنية نجد أن النبي ﷺ، لمحبته أن يسلم الخلق وأن تدخل قريش في الإسلام وأن يقربها إلى الدين، يخفف الكلام معهم ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾، ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾، فكان النبي ﷺ يتعب أن لا يسلم البشر، ويظن أنه يمكن ببعض التنازل، أو الذي سماه الله: المداهنة، يمكن أن يقرّبهم؛ فاقترابهم ولو لخطوة واحدة يمكن أن يتعرفوا على الدين أكثر فيسلموا.

من القضايا المهمة في سوق قصص الأنبياء هو إماتة هذه القضية في ذهن الداعي إلى الله، في ذهن النبي ﷺ وفي ذهن أتباعه؛ لأنك إن تنازلت فهذا لا يؤدي هذا إلى إسلامهم، بل يؤدي هذا إلى إماتة الإسلام نفسه وتدميره. ثم إن هذا قد ثبت.. الله استجاب للأمم السابقة مطالب كثيرة طلبوها من الآيات من أجل أن يسلموا، فلم يستجيبوا، جاءتهم الآيات فلم يستجيبوا.. خلق الله عز وجل الناقة لصالح وأخرجها من الصخر، ومع ذلك خرج إليها أشقاهم فقتلها، فدمرهم الله عز وجل. وكذلك موسى عليه السلام؛ أتتهم تسع آيات بينات: أتاهم الطوفان، أتاهم الجراد، القمل، الضفادع، والدم.. أتتهم ﴿**فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ**﴾. وهكذا الأمم.. فدل هذا على أن ما

يقوله هؤلاء هو من باب المعاندة، وإلا فقلوبهم تعلم أن النبي جاء بالحق وأن الأنبياء جاءوا بالحق، لكنها المعاندة والتعالي على الأنبياء.

فالمهم في هذه القصة، كما رأينا: قريش أرسلت رجلًا من كبرائهم، وبلا شك أن قريش فيها من حكماء هذه الدنيا، ولكن حكماء الدنيا لا يعني أنهم يقبلون الهدى إذا علموه، خاصة حين يكون هذا الهدى متصادمًا بقوة مع سلطان قد استقر في أنفس الناس، من سلطان الآباء أوسلطان الأسرة أو سلطان القبيلة والعشيرة، أو سلطان الخضوع للآلهة، كما نشؤوا عليها من قبل آبائهم وأجدادهم.. فمهما بلغ المرء حكمة في الحياة فإنه يحتاج إلى مجاهدة عظيمة من أجل التخلص من عوائق الهدى إذا تكشف للمرء وعلِمه وأبصره.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله.

الدرس الحادي عشر:

إنكاره ﷺ أن تترك الدعوة إلى الله (3)

[25 نوفمبر 2018 – 17 ربيع الأول 1440]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

ما زلنا مع حديث عبد بن حميد في مسنده عن ابن أبي شيبة، في شرحنا لـ"حياة الصحابة" لمحمد يوسف الكاندهلوي، وهذا الحديث بوّب له تحت قوله: (إنكاره ﷺ أن تترك الدعوة إلى الله).

في هذا الحديث هنا لا بد من بيان مسألة مهمة، وهي أن قريشًا لما أرسلت أعلمهم بالسحر والكهانة والشعر، فأرسلوا عتبة بن ربيعة، نحن رأينا شيئًا عجيبًا؛ وهو أن النبي ﷺ قرأ عليه سورة فصلت..

بعض الناس لا ينظر إلى بيئة الحدث من أجل أن يقرر المعاني فيه، ولا بد من النظر إلى بيئة الحدث لتعرف كيفية جريان الحدث فيه وملاءمة ما يجري فيه من أقوال وما يجري فيه من أفعال التي تلائم البيئة.

نحن نظرنا فرأينا أن النبي ﷺ قد قرأ على عتبة بن ربيعة سورة فصلت..

عندما أرسل النبي ﷺ معاذًا قال له: (**ادعوهم إلى "لا إله إلا الله"، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات..**) بين له بعد ذلك الشرائع. وهنا يأتي سؤال: هل ما يقوله بعض الناس من أن إقامة الحجة بمجرد تلاوة القرآن على الخلق كافية؛ فإن النبي ﷺ لم يكن يتلو على قريش في إقامة الحق إلا القرآن، والنبي ﷺ عندما أرسل معاذًا بين له أن يدعوهم أولًا إلى لا إله إلا الله، لا يجوز لأحد أن يبدأ بغيرها.. بعض الناس يقولون هذا؟

هذه ظاهرية عجيبة، غير سديدة.. علينا دائمًا أن ننظر إلى سبب النزول، لا لتقييده في عدم اضطراده أو تنزيله على غيره من الأشخاص ممن تجتمع فيهم علل الحكم الذي نزل على الأشخاص حين نزل الحكم الأول في ابتدائه، بل لا بد من مراعاة سبب النزول، وهذه القضية ليست قضية ما يسمى (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) عند الأصوليين؛ فإن الأمة مجمعة على أنه إذا نزل حكم قد عُلّق بعلة فليس من العلة أنها لشخص محدد دون شخص آخر، الأسماء ليست من العلل. يعني: نزلت حادثة ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا**﴾، نزلت في خولة؛ العلة

ليست أنها خولة، وليست العلة أنها رفضته أو أغضبته لما دعاها –نظر إليها في القمر فأعجبته، وهي زوجته، فأرادها، فأنكرته–، هذه ليست علة، العلة أن الرجل قال لها كذا وكذا، العلة أنه قال لها: **أنت عليَّ كظهر أمي**.. فمن قال ذلك لزوجته –زوجته اسمها خولة أم اسمها خديجة أم اسمها فاطمة– فالحكم يقع عليها. فالأسماء ليست عللًا؛ ولذلك من أضعف المفاهيم مفهوم المخالفة، بل حقيقة لا يقول به أحد، وهو مفهوم اللقب، يعني الأسماء، فمفهوم اللقب لا يأخذ به العلماء وهو من أبعد ما يكون.

لكن لا بد من النظر إلى بيئة النزول.. وهذا قاله عامة أهل العلم، وبعض المعاصرين لا ينتبه لهذا.

أضرب لكم أمثلة لهذا أصوليًا؛ لأنها ستجيب على هذا السؤال الذي بين يدينا في قضية إقامة الحجة وطريقة النبي ﷺ في زمانه: لماذا كان يقرأ القرآن؟، وهل قراءة القرآن على كل مشرك في الدنيا تحقق قراءة القرآن من النبي ﷺ على عتبة بن ربيعة؟؛ مثلًا: المعاصرون يستنكرون على من قال أن قول النبي ﷺ: (**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة**) كثير من أهل الفقه قال: إنما يؤم الناس أفقههم وليس مجرد القراءة، كما قال الشافعي، لماذا؟ قال: لأن الصحابة كانوا قد تساووا في فقه الصلاة فكلهم كانوا يصلون وراء النبي ﷺ فيسمعون منه ويرونه، فالتمايز يكون بالقراءة، فقال: لما اجتمعوا في فقه الصلاة على معنى واحد تميزوا بالقراءة، وإلا فالإمام أولى وأحوج لفقه الصلاة من القراءة؛ لأنه إذا وقعت معه مشكلة فلا يستطيع أن يقوم بها إلا الفقيه.

هذا إحدى صور التعامل مع القول بما يلائم النازلة من بيئة، من أحوال، من موضوع... وهكذا، والمسألة كبيرة في هذا، لكن نكتفي بهذا المثال من أجل أن نبين.

القرآن للتدبر، والحجة لا تقوم إلا بالفهم وليس بمجرد السماع الذي فيه أصوات. يعني: الأجنبي الصيني إذا سمع العربية فهي عنده مجرد أصوات، ما الفرق عند الصيني أن يسمع العرب يتكلمون أو أن يسمع ضربًا على الطاولة؟ لا فرق؛ لأنها لا تفيده أي معنى.. نحن عندنا نسمع الصينيين يتكلمون بعض الناس يصفها كأنها ضرب في داخل إناء، وهكذا، لا نفهم منها علمًا ولا نفهم منها معنى.

فالنبي ﷺ قرأ القرآن على عتبة؛ لأن أهل العربية أجمعوا أنه لم يكن في تاريخ العرب أفصح من العرب الذين نزل عليهم القرآن في وقته، عرب قريش الذين نزل عليهم القرآن هم أفصح العرب في تاريخ العربية. من أين جاؤوا بهذا؟ جاؤوا به من آيات التحدي؛ فإنه لا يقع التحدي إلا على أعظم الناس في الباب الذي وقع فيه التحدي، فمتى وقع التحدي ببعثة النبي ﷺ؟ عندما نزل القرآن، فأعلم الناس بالعربية هم الذين نزل عليهم القرآن؛ لأن التحدي نزل عليهم

دون غيرهم، ولو كانوا أقل من غيرهم لقال الناس: لو نزل القرآن على امرئ القيس لأجاب؛ لأنه أعلم من الذين نزل عليهم القرآن. فلذلك وقع الإجماع على أن أفصح العرب في تاريخ العرب هم الذين نزل في زمانهم القرآن.

فلما قرأ القرآن النبي ﷺ على عتبة بن ربيعة كان يفهمه فهم العربي الدقيق.

قد يقول قائل: لكن النص يقول: "**والذي نصبها بنية ما فهمت شيئًا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**"؟!! القرآن بهره، قطع قلبه.. لما قال: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾ وقعت عليه، مما يدل أنه فهمها؛ لأن العربي يتفاعل مع الكلمات، ففطرت قلبه، أتعبته.

فإذًا: هذا لا يعني أن تأتي على كل أحد لا يفهم القرآن وتقول له: أقيم عليك الحجة!!، بل لا بد أن تبيّن المعنى، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ**﴾ الناس لهم ألسنة، حتى العربي اليوم هو غير العربي في زمان قريش زمن النبي ﷺ، تشرحها بلسانه اوهو عربي، باللسان العربي الذي يلائمه، هذا لا بد من مراعاته.

وبهذا يتم الجواب كذلك على: هل من الواجب، الذي لا يجوز المحيد عنه، حين تدعو رجلًا إلى الإسلام أن تبدأ معه بالتوحيد؟. لا، ليس شرطًا، ربما يكون موحدًا على المعنى العقائدي –يعني: يعلم أنه لا خالق إلا الله، وكل الآلهة باطلة– ولكن يقول: أنا عندي مشكلة في رسالة مُحَمّد، أثبتْ لي أن محمدًا –ﷺ– هو رسول الله، أما (لا إله إلا الله) فأنا معك وموقن أنه لا يجوز أن يعبد إلا الله.. فحينئذ تشرح له ما عجز عنه.

نحن نرى اليوم الكثير من الناس من غير المسلمين لهم شُبَهٌ تتعلق بالحدود، تتعلق بالأحكام.. فإذا شُرِحتْ له على المعنى الصحيح أجاب، أسلم .. لكنه يُلبَّس عليه في قضايا معينة فتشرح له.

الدعوة إنما هي حكمة الفعل، والحكمة توجب النظر في تلاؤُم الفعل مع الحدث، هذه هي الحكمة، لأن المقصود البلاغ. ما معنى البلاغ؟ بَلَغَ: وصل، أي: وصل إلى قلبه الحكم، وصل إلى قلبه الفهم، وصل إلى قلبه المعنى.. بلاغ.

ولا بد من الحكمة، ما هي الحكمة؟ أن تنزل الشيء منزله؛ فهذا الرجل ملائم له أن تقرأ عليه القرآن، وهذا رجل ملائم له أن تشرح الآية ولا تقرأ عليه القرآن، وربما تقرأ عليه القرآن وتشرح له الآية، وربما لا تحتاج إلى آية بل تحتاج إلى مسألة عقلية، عنده مسألة عقلية فتجيبه من جهة عقلية.

قد يقول قائل: هل يمكن أن لا تقرأ القرآن على المخالف؟ نعم؛ لأن كثيرًا من المخالفين لا يحبون أن تحتج بالقرآن، يقول لك: أنا أتكلم معك كلامًا عقليًا فأجبني بالعقل. فأنت ماذا تفعل؟ تأخذ هذا القرآن فتصيغه بصياغة العقل

الذي يتلاءم مع المقابل؛ لأن القرآن فيه أدلة برهانية عظيمة على ما يقوله العقلاء وأهل الفطر من أهل العقل، فتصيغ هذه المعاني فيسمع منك، وبعد ذلك يفهم، تقول له: ما أقررت به هو موجود في قرآننا، موجود في مصحفنا، موجود في آيات ربنا، فيبهره هذا ويتعجب، وهكذا.

فالقصد من ذلك أن نبين أن هذا من أسلوب الحكمة في الدعوة إلى الله عز وجل، وهو التعامل مع الناس بحسب مراتبهم العلمية والعقلية وبحسب أحوالهم.

والله تعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني عشر:

إنكاره ﷺ أن تترك الدعوة إلى الله (4)

[29 نوفمبر 2018 – 21 ربيع الأول 1440]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى صحبه وآله ومن والاه.

ما زلنا مع كتاب "حياة الصحابة" للشيخ مُحَمَّد يوسف الكاندهلوي رحمة الله عليه، وما زلنا مع حديث جابر رضي الله تعالى عنه الذي أخرجه عبد بن حُمَيد في مسنده عن ابن أبي شيبة، ويقول الشيخ بعده:

وقد رواه البيهقي وغيره عن الحاكم، وزاد: (وإن كنت إنما بك الرئاسة عقدنا ألويتنا لك، فكنت رأسًا ما بقيت).

هذه فائدة هنا في هذا الباب:

هل تظن أن قريشًا توليه درءًا لشره فقط مع –نعوذ بالله، نقولها تنزلًا– مع سفاهة يعتقدونها فيه؟ يعني: السؤال هنا: عندما يقول له: "**وإن كنت إنما بك الرئاسة عقدنا ألويتنا لك**" وصرت إمامنا وصرت رئيسنا، ما الدافع لهذا؟ هل يعتقدون أنه لا يستحق الرئاسة ولكن يعطونها من باب التنزل ودرء الشر. أو أنهم يعتقدون أنه يستحق هذه الرئاسة؟

بلا شك أن قريشًا أعظم من أن تستجيب لرجل من غمار الناس، ومن سفهائهم؛ يزعم شيئًا ما، فيعالجونه بإعطائه الرئاسة.

وهذا ينبهنا إلى بعض من يريد أن يتقيَ شر الناس بإعطائهم الإمامة.

أذكر حادثة، قيل لأحد القادة في أفغانستان: لماذا وليتم فلانًا وهو سفيه ولا يستحق؟ فضرب مثلًا بالقصة التالية، قال: هناك لص كان يأتي ويسطو على أحذية المصلين، فقالوا: كيف نعالجه؟ قالوا: ضعوه إمامًا لكم، فوضعناه إمامًا؛ لئلا يسرق الأحذية.

طبعًا هذه سفاهة، هذا ليس من الحكمة في شيء، ولا يُولى السفيه لأنه حينئذ يزداد شره.. ولو أخذنا المثل على كلّيته لكانت سرقته الأحذية أهون من أن يصلي بهم فاسدًا؛ فربما يصلي بهم بلا وضوء، وربما يسرق من صلاته، وربما يسجد فيسجدون فيقوم ويتركهم ويتلعب بهم، وربما يبطل صلاتهم بالدعاء عليهم.. وهكذا؛ فيصبح الناس وقد كانوا في فساد دنياهم بسرقة أحذيتهم فتذهب عنهم صلاتهم.

لا يجوز لأحد في ديننا أن يُولى وهو لا يستحق درءًا لشره، لا يجوز، ولا يجوز لأحد أن يعطى هذه الأبواب الدينية درءًا لشره؛ لا إمام مسجد، ولا مفتي، ولا قاضي، ولا أمير جماعة، ولا أمير سفر.. لا يجوز هذا؛ لأن هذا مفسد لحياة الناس.

القصد من هذا: أن قريشًا عندما دعته وطلبت منه هذا الطلب كانت تعلم أنه يستحق، ولكن كانوا هم بين نارين: بين رجل يرون أنه سيحرق يابسهم، وسيدمر كياناتهم الباطلة الجاهلية، وسيهدم عليهم معابدهم الشركية لا محالة، ويرون أنه يؤثر في الناس تأثيرا فاعلًا قويًا في تغيير عقائد الناس..

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾

انظر لهذه الكلمة: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾!! هذا يدل على أن السؤال صار ظاهرة اجتماعية في داخل قريش؛ يتحدثون عنه، ولذلك في النص يقول: **"حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا وأن في قريش كاهنًا"**.

النبي ﷺ قذف قذيفة الحق بين الناس فطارت؛ ولذلك إياك أن تستصغر كلمة الحق، إياك، وإياك أن تقول: قلنا كلامًا كثيرًا فلم ينفع. أنت ربما رأيت أنها ليست نافعة في جانب أنت تريده، ولكن في جوانب عظمى حققت مرادها.

كم من شهيد مات لدعوة الناس للشهادة، ولو لم نصل إلى الملك والسلطان والخلافة؟!.

كم من موقعة جهادية دعا إليها رجال بكلماتهم، فاستجابت لهم جموع من الشباب، فأقاموا ملاحم إيمانية أشبه ببدر وبأحد وبالخندق، وإن لم نصل إلى الخلافة والملك والسلطان؟!.

الناس دائمًا –للأسف– لا يرون المعارك الصغرى التي تشكل المعركة والنهاية الكبرى التي تتحقق بعد سنين.

ولذلك؛ كلمة الحق هذه يجب أن تبقى قائمة، ولا يجوز لأحد أن يستصغرها، ويجب أن نشيع الحق.. عندك كلمة حق فقلها، والله يبارك فيها.. ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾، من الذي أسمعنا في هذا الزمن نداء إبراهيم؟ الله.

إسماعيل عليه السلام وإبراهيم دعيا ربهما أن يبعث في هذه الأمة رسولًا، فكم من الزمن امتد حتى جاءت استجابة هذا الدعاء؟! سنين طويلة.. غابت الإمامة والنبوة في نسل إسماعيل وبقيت في نسل إسحاق، حتى تحققت بعد مئات من السنين –مئات من السنين!! نحن لا نثق بالتوراة، يعني: بين موسى عليه السلام –تقول التوراة– وبين عيسى ألف وأربعمائة سنة، فكم بين إسماعيل عليه السلام وبين موسى، ثم بين موسى وعيسى؟ وبين عيسى ومُحَمَّد خمسمائة سنة– ومع ذلك حصل ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ﴾؛ بنيت الكعبة وطاف الناس موحدين ربهم ولبوا نداءه: لبيك اللهم لبيك.

ولذاك قال موسى: ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾.

أنت لا تعرف ماذا يجري وراء الأبواب من قوة الكلمات التي تنطقها، لا تعرف، والدليل: كلمة واحدة تؤدي بك إلى السجن، لماذا؟ لو كانت هذه الكلمة لا قيمة لها، يقول لك: ساقط، لا تنشغلوا به، اتركوه. لكن كلمات الحق قوية، قذيفة ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾، الحق قوة وقذيفة أمام الباطل ويدمر الباطل؛ فحينئذ يخاف الناس من كلمة الحق، وخاصة أهل الشرك، يخافون من قذيفة الحق.

ولذلك؛ عندما دعوه إلى الرئاسة دعوه لأنه يستحق الرئاسة؛ يستحق، وهو الصادق الأمين، وصاحب رجاحة عقل –كان عبدالمطلب سيد قريش المقدم فيها، وأعظم من حواه الوادي، وكان يحب النبي ﷺ ويرجح عقله. وأبو طالب كذلك كان يحب النبي ﷺ ويرجح عقله؛ فكان عقله من أعظم العقول ﷺ– وإدراكه للأمور وحكمته في فك الخصومات وإدارة ما يطلب منه وما يكلف به كان إمامًا فيها.

ولذلك: تريد الإمارة؟ نعطيك إياها من غير هذا الطلب.. فهم يعلمون ذلك.

الأمر الثاني في موضوع الطلب: هذا الطلب علامة ماذا؟ فيه تنازل؛ لأنه شاب مقابل الجموع الكبيرة من الرجال أعمامه.. عتبة، أبو جهل، أبو لهب، هؤلاء أصحاب مناصب ثابتة وتاريخية وعُمُد، ومع ذلك تنازلوا مقابل ماذا؟ مقابل أن تبقى اللحمة في قريش، أن لا تتفرق قريش، يعني: بعض الذين يزعمون الحكمة على حساب الدين لا يريدون التفرق.

هناك طرح كذلك يطرحه بعض الطيبين، يقول: لماذا النبي ﷺ لم يستلم إمارتهم وبعد ذلك يغير دينهم؟ يعني: لماذا لا يستلم الإمارة والقيادة ثم يغير الدين؟

حقيقة: هذا كلام سمعته من بعض الناس ويُرَدُّ عليه بردود ما، ولكن أعظم الردود:

فرعون قال لقومه: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾، وصدقوني، لو فرعون يأتي لقومه، ليس لبني إسرائيل، لقومه ويقول: لست إلهكم، لقاموا عليه انقلاب وأعادوه إلهًا!!.

هذا الموضوع حصل مع الإسماعيلية: لما مات زعيمهم الأغاخان الكبير الجد، وكان ابنه قد مات وحفيده موجود، إسماعيل خان كان موجودًا، وهو إلى الآن أمير الإسماعيلية التي تسمى: الأغاخانية؛ لأن الإسماعيلية انقسمت إلى قسمين: هناك طائفة إسماعيلية الآن في الهند اسمها البهرة، وهناك طائفة إسماعيلية تسمى الأغاخانية؛ فهذا الشاب متنور، ودرس في المدارس الأجنبية، فلما مات جده أحضروه وقالوا له: أنت إلهنا، فقال: أي إله؟! أنا بشر مثلكم؛ فخرجت مظاهرات في سلمية في سوريا؛ لأن هناك مركزًا كبيرًا للإسماعيلية في بلاد الشام، فخرجت مظاهرات تقول: إن لم تقبل أن تكون إلهنا انتخبنا إلهًا غيرك!!!

الناس حين يستمرؤون الذل يصبح الذل دينًا، فيثورون له، يبحثون عمن يطأ على رقابهم برجليه، يبحثون عن هذا.

ولذلك؛ إذا جاء النبي ﷺ –انظر إلى هذا الباطل!!– لو جاء النبي ﷺ أميرًا وقائدًا وسيدًا على قيادة كتلك، فإنه لو دعاهم لغير هذا الذي هم عليه لثاروا عليه وقتلوه؛ انتصارًا لدينهم.

الباطل حين يدخل إطار الدين والتدين لا يمكن قلعه إلا بدين يقابله، أو يقلع الرأس.

إذا دخل الوهم على قلب العبد باسم الدين لا يمكن أن يزيحه شيء في الوجود إلا دين آخر يعتقده فيزيل الأول، أو أن يقلع الرأس؛ ولذاك: أشد العداوات هي عداوة الدين.

فلذلك هذا الذي قالوه لا يصلح؛ لأن الناس دخلوا معك وبايعوك إمارة على هذا الدين، على هذا القانون، على هذا الدستور.. فكيف تنقلب عليه؟ هم قبلوك بهذه العقيدة، فلا ينفع هذا أبدًا.

الأمر المهم في الباب: إن هذه الرئاسة هي مقابل التخلي عن الدعوة والدين، وهذا من أكبر المداهنة ومن أكبر الباطل أن يتخلى المرء عن الحق مقابل منصب أو مقابل دنيا. إذا قبل العبد هذا مرة واحدة سقطت قيمته عند الناس، والناس يضربون مثلًا في هذا: رجلًا أراد أن يقتل أفعى، وهذه الأفعى تجلس فوق ذهب؛ فذهب ليقتلها، فتصارعا، وهم يمثلون الشيطان، فغلبها؛ لأنه ذهب لله، ومرة ثانية ذهب وأزاحها عن طريق الناس فغلبها؛ فجاءت إليه يومًا هذه الأفعى وقالت له: ما رأيك أن أعطيك كل يوم دينارًا ذهبيًا وتتخلى عن هذه الطريقة في مصارعتي وفتح الطريق للناس؟

فقبل الرجل. فصارت كل يوم تضع له الدينار تحت وسادته، يقوم في الصباح ويرفع الوسادة فيجد دينارًا ذهبًا؛ فبعد مدة قطعت عنه الدينار، فذهب ليصارعها فصرعته، فسألها مستغربًا: ما الذي حدث، كنت أصرعكِ فكيف صرعتيني هذه المرة؟! قالت: كنت تصارعني لله، والآن تصارعني لدينار الذهب.

المرء عليه أن يخلص لله لينتصر على الباطل، عليه أن يكون لله ليتحقق أثر كلمته في الناس؛ وحيث استأجرت الكلمة لغير الله ضاعت قيمتها في هذا الوجود.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

الدرس الثالث عشر:

إصراره ﷺ على الجهاد بما بعثه الله به من الدعوة إلى الله (1)

[4 ديسمبر 2018 – 26 ربيع الأول 1440]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

ما زلنا مع كتاب "حياة الصحابة" للشيخ محمَّد يوسف الكاندهلوي، في كتاب الدعوة إلى الله وفي باب (إصراره ﷺ على الجهاد بما بعثه الله به من الدعوة إلى الله)، يقول:

وعند الطبراني عن المسور ومروان مرفوعًا: يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، فماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب؛ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن الله أظهرني عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يقبلوا قاتلوا وبهم قوة. فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله حتى يظهرني الله أو تنفرد هذه السالفة.

كذا في كنز العمال.

وهكذا أخرجه ابن إسحاق من طريق الزهري وفي حديثه: فما تظن قريش؟! فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة.

كذا في البداية.

كأنه أخذه من كنز العمال ومن البداية والنهاية.

هذا الحديث يمكن أخذ فوائد كثيرة منه:

أول فائدة أعتبرها، هي: إن الذي أرسل نبيه بالدعوة هو الذي يقدر له المقادير لينصر هذه الدعوة، ولا يختار النبي هذه المقادير، ولو أراد أي نبي غير هذه المقادير لم يقع إلا ما قدره الله؛ لأن النصر فعل إلهي، ويقدر له من الأقدار بفعله هو لا باختيار البشر.

وربما أراد الناس في وقت من الأوقات مقادير معينة، فيصرفها الله عز وجل عنهم حتى تتحقق مقادير النصر. وأضرب أمثلة سريعة في هذا الباب؛ ليعلم الناس أن هذا الدين منصور، وأن الكثير من الأحداث التي يظن العبيد ويظن المسلمون أنها بعيدة عن طريق النصر هي في الحقيقة تؤدي إلى النصر رغم أنوفهم:

نحن رأينا أن النبي ﷺ لما خرج إلى العير، لم يرض الله لهم العير ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، هم أرادوا شيئًا والله أراد شيئًا، وساقهم سوقًا إلى القتال وإلى بدر وإلى يوم الفرقان.

نحن رأينا ما وقع في صلح الحديبية، وقد غضب الصحابة غضبًا شديدًا، ولكن كان فتحًا عظيمًا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

فالله عز وجل يقدر المقادير لأمر، الناس ربما لا يريدونه، ولكن في هذه المقادير سر إلهي، والأسرار كثيرة؛ منها أن يأتي الله الأعداء من حيث لا يحتسبون، ومنها أن يعلم العبيد أن هذا النصر ليس بأيديهم: مهما حاولوا، ومهما أرادوا، ومهما اجتمعوا، ومهما قرروا وقدروا.. بل هو بيد الله ليس بأيديكم.

هذا الدين شرعه من الله وأقداره من الله.

الله عز وجل امتحن الصحابة في أحد، امتحنهم؛ ليعلم إيمانهم، ويتخذ منهم شهداء، امتحنهم في هذا وأجرى المقادير التي تتحقق بها التربية العظيمة الإيمانية لهذه الفئة المؤمنة.

نرجع لهذا الحديث بين أيدينا:

النبي ﷺ ينصح قريشًا، وبينه وبين نفسه يتمنى أن لا يقابلها، لا يريد أن يقاتلها؛ فهؤلاء أهله وعشيرته، فلا يريد أن يقاتلهم فهو يقول: (**يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب**).

يقول: أنهكتهم الحرب. وهذا بعد أن جرت بدر، وجرت أحد، وجرت الخندق.. بعد هذه الأحداث, يقول: (**فماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب**).

النبي ﷺ يتمنى أن تزول قريش من طريقه ويتفرغ لسائر العرب في جزيرة العرب. وهذا تقدير فيه منفعة لقريش بحسب الكلام، وفيه منفعة للنبي عليه الصلاة والسلام في ظنه: أما منفعة قريش؛ فقد ذكرها، يقول: (**فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن الله أظهرني عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يقبلوا قاتلوا وبهم قوة**).

يقول النبي ﷺ: ليتركوني وأنا أنشغل بالناس، إذا هزموني كان لهم ما أرادوا، إذا العرب قضت عليَّ كان لقريش ما أرادت، وإذا انتصرتُ كان عزًا لهم كان خيرًا لهم، وإذا انتصرت على العرب ولم يقبلوا الدخول في الدين قاتلوني وبهم رمق وقد احتفظوا بقوتهم.. هذا بالنسبة لمنافع قريش في تركها.

وأما منفعته؛ فإن قريشًا هي أعظم العرب في الجزيرة العربية، والمرء حين يقاتل لا يبدأ بالكبير، يعني: عندما يبدأ المرء مسيرته في قتال أعدائه، وهو ما زال في حالة النمو وليس في حالة الاستقرار والقوة، إنما يضرب الأضعف ويبدأ بالأضعف، حتى يقوى فيصل إلى الأعلى؛ وقريش هي سيدة الجزيرة العربية –ويذكر العرب أن اسم (قريش) إنما هو لدابة في البحر تأكل غيرها، يعني القرش–، وفي صحيح البخاري: **كانت العرب تنتظر الفصل بين النبي ﷺ وقريش**؛ من ينتصر، لأن قريش هي سيدة الجزيرة العربية، ولو كانت هناك قبيلة في جزيرة العرب تستطيع أن تزيح إمامة قريش عن مكة لفعلت، بل إن قريش طردت أكبر قبيلة بعدها، وهي خزاعة، طردتها وأخرجتها من مكة وملكت مكة.

فلذلك؛ كان من مصلحته أن لا يجابهها، ويتمنى أن تبتعد عنه حتى ينشغل بغيرها.. ويأبى الله إلا أن يجعل أعظم القبائل في مواجهته؛ ليتحقق النصر منهم، لأن في ذلك أمورًا عظيمة؛ منها ما ذكرنا، وأعظم من ذلك: أن يعلم الناس أن الله هو الذي يحارب، وأن الله هو الذي يقاتل، وأن الله هو الذي يعادي هولاء، وأن الحرب ليست بينكم وبين هؤلاء، بل بين الله وبينكم والله سيغلب.

رأينا كيف انهارت قريش انهيارًا عجيبًا، رأينا كيف دخل النبي ﷺ مكة.. انهارت، لم تقاتل، في منظر عجيب يدل على أن الله سلب قوة قلوبهم ولم يسلب قوة أبدانهم فقط، وإلا؛ فأين قريش؟! ما زالت هي هي، تستطيع أن تذهب وتخرج وتأتي بالرجال، ولكن انتهت قريش، انتهت إرادتها. فدخل النبي ﷺ مكة.. واختلف أهل العلم: دخلها عنوة أو صلحًا على ما يعرف في كتب الفقه.

فالقصد: إن قريشًا انتهت. هذه فضيلة انتهت قريش أي انتهت الجزيرة العربية.. هذا سر إلهي ومكرمة إلهية؛ فلو بدأ بالصغير والصغير كم سيحتاج حتى يصل إلى قريش؟! ثم سيصل إلى قريش وهي في قوتها ومنعتها، وستطول الحرب، وربما بكون هو منهكًا ، ولكن حيث قضى على قريش رأينا ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.. الله قدر لدينه ولنبيه ﷺ أعظم المقادير من أجل أن يحقق نصرة هذا الدين.

والقصد: أن الناس كثيرًا ما يخططون فيفشل تخطيطهم، ويرون أنهم مساقون.

نحن لا نتحدث فقط عن قضايا ذهبت وانتهت، نتحدث عن زماننا: نرى كيف أن هذا الدين ينمو ويقوى، وكيف أن الجماعات تفكر.. والله، المرء وهو يراجع أفكار الجماعات وتخطيطات الجماعات المسلمة العاملة لدين الله؛ لإعادة النصرة والعزة للدين وعودة الإمامة والملك لأهل الإسلام قبل أربعين سنة، يقول: أين كانت عقولهم؟! كيف كانوا يفكرون؟! وبعجب كيف جرت الأمور على حال وكيف يجريها الله عز وجل على حال آخر، والجماعات كأنها قشة فوق النهر تسير بها الأقدار من تحتها من غير إرادة منها.

النبي ﷺ كان يتمنى أن لا يقابل قريش، ويأبى الله إلا أن يضع قريشًا أمامه من أجل أن يتحقق النصر الحقيقي، ويتحقق النصر الإلهي العظيم بزوال أكبر قوة إذا زالت في الجزيرة زال ما بعدها.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

الدرس الرابع عشر:

إصراره ﷺ على الجهاد بما بعثه الله به من الدعوة إلى الله (2)

[5 ديسمبر 2018 – 27 ربيع الأول 1440]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

ما زلنا مع حديث المِسور بن مخرمة ومروان الذي عند الطبراني، وهو عند غيره كذلك: **(يا ويح قريش..)**

وهذا كله شرح لبعض ما اخترناه من كتاب "حياة الصحابة" للشيخ مُحَمَّد يوسف الكاندهلوي، تحت باب (إصراره ﷺ على الجهاد بما بعثه الله به من الدعوة إلى الله).

كنا في اللقاء الفائت مع حديث: **(يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، فماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب؛ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن الله أظهرني عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يقبلوا قاتلوا وبهم قوة. فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله حتى يظهرني الله أو تنفرد هذه السالفة)**.

تكلمنا عن فائدة، ولكن هنا فوائد مهمة كذلك في هذا الباب:

أولًا: قوله ﷺ: **(فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله حتى يظهرني الله أو تنفرد هذه السالفة)**؛ هذا أول شيء دليل على أن أمر الجهاد ليس أمرًا اختياريًا، بل هو أمر رباني، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي بعث رسوله ﷺ من أجل أن يقاتل قريش.

هذا الحديث ربما يبدو عند البعض معارضًا لحديث **(لا تتمنوا لقاء العدو)**..

(حتى يظهرني الله أو تنفرد هذه السالفة). المقصود هذه السالفة، وأشار الشيخ بيده إلى عنقه. ومتى تنفرد؟ عندما يموت المرء. وكذلك يشد الناس فك الميت إلى رأسه، لماذا؟ لأنه لما يموت المرء تنفرد هذه السالفة، بمعنى: تُفَك،

فينزل فك المرء ويفتح فمه، فلذلك يأتي الغاسل على الميت ويشد حنكيه إلى أعلى برباط ما.. فهذا تعبير عن وفاة المرء وانتهائه.

كيف نجمع بين هذا الحديث الذي فيه أن النبي ﷺ لن يزال يجاهدهم حتى يظهره الله؛ أي: حتى ينصره الله، يظهر عليهم ويصبح فوقهم، أو تنفرد هذه السالفة؛ أي يموت، فكيف نجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: (**لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فاصبروا**)؟

هذا الحديث، الذي في الصحيح، هو في يوم الأحزاب، ويوم الأحزاب...

نذكر الإخوة: لا بد أن نقرأ الأقوال بحسب بيئتها وبحسب ظروفها، من أجل أن نفهمها فهمًا صحيحًا، وننزلها منزلتها الصحيحة، ولا يجوز تعميمها على كل حالة. يعني: عندما قال الله عز وجل عن الأعداء: ﴿**لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ**﴾، هذا في حالة وليس في كل حال؛ بمعنى: لا يقاتلك العدو إلا في هذه البيئة؟ لا، يمكن أن يواجهك وهو يغزوك.. يعني: عندما جاءنا الكفرة من وراء البحار؛ الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون، وغزوا بلادنا، لم يقاتلوا من وراء جدر، بل قذفونا بالقذائف وأمتنا مختبئة وراء الجدر. والقصد: هذا في أحوال وليس في كل حال.

الله عز وجل قال: ﴿**قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**﴾، وصف هذا النوع من المقاتلين، وهذه عند كثير من أهل التفسير نزلت في المرتدين في زمن أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وصفهم بـ﴿**قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ**﴾، وهم كذلك؛ إما أن يموتو وإما أن يسلموا، ولا ينتهي قتالهم من شدة بأسهم.

وهنا قوله ﷺ (**لا تتمنوا لقاء العدو**) إنما في حالة خاصة، وهي أن العرب بقيادة قريش جمّعت أعراب البادية وجمعت قبائل الجزيرة العربية من غطفان وغيرها وأتت بها جحافل زاحفة حول المدينة، ولذلك النبي ﷺ لم يخرج إليهم؛ لأن في الخروج إليهم، هنا الكلام عسكريًا، ومواجهتم في العراء خطرًا شديدًا على المسلمين. وهذا تقدير عسكري، أخذ به النبي ﷺ وطبقه، وفوجئت قريش بهذا التخطيط الجديد الذي لم تعهده، حتى إن أبا سفيان قال: هذا أمر لم يعهده العرب.

وهذا لا يعني أنه لا يجوز للمسلمين دائمًا إلا أخذ حالة واحدة في جميع الظروف؛ فعندما خرج الصحابة سنة ١٣ للهجرة خرجوا إلى بلاد الشام –بعد أن انتهى أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه من الجزيرة العربية: أنهى المرتدين وأمّن الجزيرة العربية، فبدأ بتطبيق قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ**

غِلْظَةً﴾، وسار على سنة النبي ﷺ بالإرسال إلى بلاد الشام والإرسال إلى العراق؛ لأن النبي ﷺ خرج إلى تبوك وقاتل الروم، وإن لم يحصل قتال، وأرسل النبي ﷺ الصحابة في مؤتة، والنبي ﷺ مات وقد جهّز جيش أسامة لإرساله إلى الشام لقتال الروم، فمشى على سيرته الصديق.

المهم: اجتمع في ساحة اليرموك ١٤٠ ألفٍ من الروم مقابل ٤٠ ألفًا فقط –وبعضهم يقول ٢٤ ألفًا– من الصحابة ﷺ ومن المسلمين، وهذا رقم عجيب جدًا؛ يعني تقريبًا 5/1، و(5/1) عندما يكون العدد كثيرًا تصبح النسبة أكبر.

عندما يكون ٢٤ ألفًا أو ٤٠ ألفًا مقابل ١٤٠ ألفٍ من الروم، فأنت في ذلك الوقت أمام بحر من الناس.. ومع ذلك؛ الصحابة لم يتخندقوا، ولم يهربوا، بل تبايعوا على الموت، وتستطيع أن ترجع إلى سيرة معركة اليرموك لترى من العجائب، وحقق الصحابة أمر الله عز وجل بقتالهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾، ولم يحققوا قوله ﷺ في غزوة الأحزاب: (لا تتمنوا لقاء العدو)؛ لأن الحال مختلف، ويمكن لدارس عسكري أن يرى الفروق الكبيرة بين الأمرين، بين هؤلاء وهؤلاء، وأنتم تعلمون أنه في أُحُد كانت إحدى الخيارات أن يقاتل الصحابة في المدينة؛ وهذا ما كان يميل إليه رسول الله ﷺ، وكان هذا ميل كثير من أهل المدينة، وهذا اختيار المنافقين كذلك؛ لأن ثلث الجيش رجع لأن النبي ﷺ لم يأخذ باختيارهم ولا بمشورتهم في البقاء في المدينة وخرج إلى أُحُد.

فالقصد من هذا: إن قوله ﷺ: (لا تتمنوا لقاء العدو) ليس حكمًا عامًا يحتج به مبطل للجهاد، ولو طبّقه الصحابة على كل حال ما خرجوا من الجزيرة العربية، بل إن هذا خاص في أحوال يكون من الخير أن يكْمن المرء، يكون من الخير أن يحافظ المرء على مكتسباته لظرف ما، لظرف يقرأه الحكيم، يقرأه القائد، يقرأه العسكري، يقرأه صاحب الشأن.. ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾، أي: يخرجون حِكمه وأحكامه، يستخرجون حقائقه وعلله، ويضعون له الأحكام الملائمة له.. فهذا هو الباب الصحيح في هذا.

النبي ﷺ لمْ يترك قريشًا، وما دام أنها تَبرز له فهو يَبرز لها، وحتى في هذا الحديث؛ لو نظر إليه ناظر لوجد أن النبي ﷺ في باب من الأبواب هو الذي قابل أو خرج إلى قريش.

معركة بدر نحن نعلم أنها معركة سببها الأول هو الضرب الاقتصادي، وكذلك أخرج بعض السرايا السابقة لها من أجل عير قريش، من أجل أن يضرب قريشًا في صميم قوّتها الاقتصادية، وهو الذي خرج إليهم، وخرج مرّة وخرج بعض العرب وفصلوا بينه وبين قريش إذ خرج من أجل بعض قوافلهم، رحلة الشتاء والصيف.

القصد من هذا: ينبغي إنزال هذه الأقوال بحسب أحوالها وعدم تعميمها على كل حالة؛ فإن تعميمها في نفس المرء على كل حالة يُسقط سُنن الوجود، وأعظم ما يفسد في الداعي والعامل والمجاهد أن يترفّع عن السُنن مقابل الوهم، مقابل نص خبَري يظنّه على معنى معين؛ كمن يتبع الرؤيا وينسى الواقع، كمن يتبع الوهم والخيال وينسى الواقع، كمن يتبع الشعر وينسى الواقع.. الأصل هو أن يفهم الواقع فهمًا صحيحًا ويفهم النص على وجهه الصحيح، وهذه هي مقابلة الخلق كما خلقه الله، كما هو من سننه والشرع الذي أنزله، وهما متوافقان ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾.

والله عز وجل أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس عشر:

إصراره ﷺ على الجهاد بما بعثه الله به من الدعوة إلى الله (3)

[6 ديسمبر 2018 – 28 ربيع الأول 1440]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

ما زلنا مع كتاب "حياة الصحابة" للشيخ مُحَمَّد يوسف الكاندهلوي، وما زلنا تحت باب قوله: (إصراره ﷺ على الجهاد بما بعثه الله به من الدعوة إلى الله)، وما زلنا مع حديث الطبراني عن المسور ومروان مرفوعًا: (**يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب**).

هنا مسألة: نحن أمام موضوع يتعلق بالأسماء، وهو قوله ﷺ: (**يا ويح قريش.. هلا تركتني قريش**).

النبي ﷺ من قريش، والمهاجرون كلهم من قريش، فلماذا يجعل قريشًا تقابله؟ بعض الناس تجده في الكلمات، تجده في الأسماء، تجده في الحوار يتنطع.. يعني النبي ﷺ من مضر، ومع ذلك كان يسمي مضرَ كأنها قبيلة أخرى، والنبي من قريش وكأنه يسميها قبيلة أخرى، مخالفة عنه والناس يتنطعون في هذا.. أنت قد تطلق بعض الأسماء، تقول: كذا وكذا، وأنت تقصد مضمرًا في الكلام يفهمه المقابل.

المضمر لماذا يترك؟ تسهيلًا للحديث.. والناس يفهمونه. مثال ذلك: لو أنك قلت مثلًا –وهذا كنا نجده في الحوار– والله أمريكا كذا وكذا، يقول لك: يا أخي، تتكلم عن أمريكا؟! فيها مسلمون، أمريكا فيها مآذن، وأمريكا فيها دعاة إلى الله، فلماذا تتحدث؟!. وإذا قلت: الكفار في أمريكا، يقول لك: ليس كل الكفار معادين لك، ليس كل أمريكا، هناك ناس في أمريكا –يا أخي– يخرجون في مظاهرات للدفاع عن المسلمين ومن أجل قضاياهم، فلماذا تعمم؟! وهكذا يبدأ هذا التنطع في هذا الباب.

وهذا من التنطع في الحقيقة؛ لأن الناس في الحديث يعلمون من المقصود. ومن الأدلة على هذا أن النبي ﷺ هو من قريش ومع ذلك تعامل مع قريش كقبيلة؛ لأنها الأكثر، ولأن قريش بكيانها كما هو. ما هو كيان المدينة؟ ما هو كيان القبيلة؟ ما هو كيان الجماعة؟ هو أئمتها، قادتها. وما زالت قريش بقيادتها التقليدية هي هي، كما هي موجودة ومحكومة لهم وبسلطانها وبيئتها، فبماذا يسميها إذًا؟ فإذًا يسميها بهذه التسمية التقليدية التي تجري فيها.

ومن هنا نأتي إلى موضوع الأسماء والحكم فيها: ينبغي على المرء في هذا الباب أن يتعامل إما التعامل المصطلحي؛ لأن قريش هنا تعامل مصطلحي، يعني: كلمة (قريش) هي تسمية أطلقها العرب عليهم أو هم أطلقوها على أنفسهم وليست وضعًا إلهيًا..

إذا كان المصطلح بالاتفاق وضعًا إلهيًا قد ارتبطت به الأحكام، فلا يجوز تغييره، لا يجوز. مثلًا: لا يجوز لك أن تسمي المسلمين بالمحمديين، الله قال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ لكن أنت ربما في كلام تقول: الشريعة المحمدية، أي: جاء بها محمد. وإن كان الكفار إذا أطلقوا (الشريعة المحمدية) إنما أرادوا بها النبذ، وأرادوا بها التهمة، وأرادوا بها الشر.. ماذا يقصدون؟ يقصدون أنها شريعة انتسبت إليه، هو الذي جاء بها، هو صاحبها وهو ادعاها. ونحن لما نقول: الشريعة المحمدية، مقابل الشريعة الموسوية؛ بمعنى الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ والشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام، فيجب مراعاة هذا الأمر.

أولًا: إذا كان المصطلح شرعيًا تعلقت به أحكام، فلا يجوز التعامل إلا به. لا يجوز أن نسمي الصلاة: شعائر روحية، لا يجوز، الصلاة هي الصلاة، الزكاة هي الزكاة، الدعاء هو الدعاء، لماذا؟ لأن هذه الأسماء قد ترتبت عليها أحكام، فإسقاط أسمائها هو من أجل إسقاط أحكامها.

كما نسمي الخمر -لا نريد أن نتحدث الآن عن الجانب النفسي في مثل هذه الأمور، الجانب النفسي مهم-؛ لما تقول: أنت تشرب الخمر.. أن يأكل الربا، هذا ربا، بخلاف أن تقول: فوائد. فلذلك هذه تسميات شرعية لا يجوز للناس أن يغيروها؛ لأنهم إذا غيروها إنما يريدون ما يترتب عليها من أحكام.

كذلك إذا كان الكلام مبنيًا على اصطلاح. ما معنى مصطلح؟ يعني: اصطلح الناس عليه، توافقوا عليه، تواطئوا عليه. فإما أن يكون هذا التواطئ عامًا في عموم المسلمين، مثلًا: الآن في كل البلاد يطلقون اللحم على غير السمك، على الرغم أن القرآن قال: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾، سمى السمك لحمًا طريًا، فهو لحم، لكن العرب تواطئوا وكلام الناس تواطئ على أن من يقول: أكلت لحمًا، لا يقصد به السمك، هذا صار عرفًا عامًا واصطلاحًا عامًا، لا بأس بالتعامل به.

وإنزال كلام الناس على معانيهم التي تعارفوا عليها، هذا من الحكمة، وتترتب عليه أحكام. يعني: الآن لو قلت: قوم، فلا فرق بين الرجل والمرأة، يقول: قوم فلان، فيقصد الرجال والنساء والأطفال، والقرآن يفرق بين القوم وبين النساء: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾؛ فأخرج النساء من القوم، مع

أنه يمكن في كلام العرب أن يطلق القوم على النساء، لكن هنا فرق بين القوم وبين النساء، علامة على أن النساء لا يدخلن في القوم.

هذا كله من التعارف الذي يجريه الناس في عباراتهم ويصطلحون عليه ولا يعاب عليهم.

وهكذا يجب على المرء أن ينتبه لما يقوله الآخر، لا يجبره أن ينطق على لسانه إلا إذا أتى المرء بالغرائب، يعني أتى بشيء عجيب، حينئذ يقول: ما الذي تقصده؟ فإذا أتى بالغرائب يقول له: عد إلى ما جرى عليه عرف الناس وعلى ما جرى عليه العامة وما استحسنوه وما اصطلحوا عليه وما قبلوا به -أنا أتكلم عن المصطلحات-، أما إذا أتى بشيء مفهوم لدى الآخر فمن التنطع الوقوف أمام كلامه.

ومن هنا ما نراه في هذا الباب عندما نتكلم عن جماعة، عندما نتكلم عن أمة، عندما نتكلم عن بلد، عندما نتكلم عن كذا... فلذلك لا يعاب عليه في هذا الباب.

إنما النبي ﷺ قال: (**يا ويح قريش**)، العرب تعرف المقصود بـ(قريش) فهي ما زالت الأكثرية.. كم أسلم من قريش قبل فتح مكة؟ عدد الذين أسلموا من الرجال والنساء لا يزيد عن مائة وعشرين رجلًا وامرأة فقط، من كل قريش، وإلا فبقيتها بقيت على ما هي عليه، حتى دخلوا في الإسلام وافرين بعد فتح مكة وحقق الله لرسوله ﷺ مراده، وهو أن زالت قريش ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

هذا الذي عندي في هذا الباب.

والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس عشر:

أمره ﷺ عليًّا في غزوة خيبر بالدعوة إلى الإسلام (1)

[10 ديسمبر 2018 – 2 ربيع الآخر 1440]

الحمد لله حمدا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على خير البشر مُحَمَّد ﷺ، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

ما زلنا مع كتاب "حياة الصحابة" للشيخ مُحَمَّد يوسف الكاندهلوي رحمة الله عليه، وفي باب: (أمره ﷺ عليًّا في غزوة خيبر بالدعوة إلى الإسلام)، يقول:

وأخرج البخاري عن سهل بن سعد ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على النبي ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال: فأرسل إليه فأتى، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال رسول الله ﷺ: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم.

وأخرجه أيضًا مسلم نحوه.

هذا الحديث حديث جليل عظيم، فيه من الفوائد التي ينبغي الوقوف عندها لأهميتها:

الحديث عن يوم خيبر.. وأنتم تعلمون أن هناك من اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ هناك يهود المدينة: قينقاع، النضير، وبنو قريظة، هؤلاء يهود المدينة، وكان هناك يهود خارج المدينة منهم خيبر. وخيبر ليست قلعة واحدة، كانت قلاعًا متعددة، وكان أهل خيبر يُعدون من خيرة أهل اليهود فيهم، ولما خرج بعض اليهود من المدينة لما أجلاهم النبي ﷺ نزل بعضهم في خيبر.

وخيبر اشتهرت بالثروة، واشتهرت بالزراعة، حتى تقول عائشة رضي الله تعالى عنها: "**ما شبعنا التمر حتى فتحت خيبر**"، يعني: ما شبعوا التمر حتى فتح الله عز وجل خيبر على الصحابة.

القصد من هذا: أن النبي ﷺ غزا خيبر، ولما غزاها حقق قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**﴾، فهاجمها النبي ﷺ على هذا المعنى في الصباح، وكان اليهود قد خرجوا إلى مزارعهم، فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: مُحَمَّد والخميس. والخميس هو الجيش، لماذا الخميس؟ لأن الجيش يقسم قديمًا على خمسة أقسام: الميمنة، والميسرة، وكذلك القلب، ويكون كذلك الميمنة والميسرة الخلفية، فيكون الجيش خمسة أقسام فيسمى الخميس.

فالقصد من هذا: أن هناك بعض القلاع قد فتحت واستعصت بعض القلاع على الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فحَدَثَ هذا الحديث الذي بين أيدينا، وهو أن بعض القلاع استعصت فقال النبي ﷺ: (**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**).

وهذا الحديث يبين فضل علي رضي الله تعالى عنه، وعلي رضي الله تعالى عنه لم يرد لأحد من الصحابة من أحاديث الفضائل كما ورد له، ولكن ليست كلها صحيحة.. هذا قول أهل العلم: لم يرد لأحد من الصحابة من أحاديث الفضائل كما ورد لعلي، لكن العبرة بالصحة. وإلا فأهل السنة مجمعون على أن خير الناس بعد النبي ﷺ هو أبو بكر، وفضائله الحقيقية والواقعية والصحيحة هي أفضل من فضائل علي رضي الله تعالى عنه.

وإنما هنا: لماذا خصه دون بقية الناس؟ أنا أعتقد بأنه خصه هنا تنويهًا بفضله، وفي الحديث ما يدل على ذلك؛ فإنه كان قد أرمد في عينيه، وربما هذا جعله يتأخر في بعض المعارك.

ونحن رأينا أن سبب قوله ﷺ: (**من كنت مولاه فعلي مولاه**)، سبب هذا الحديث هو أن الصحابي عاب على علي وهما في اليمن... هذا الحديث سببه أن عليًا جاء من اليمن في حجة الوداع، فعاب بعض الصحابة على علي أمورًا، فقال النبي: (**من كنت مولاه فعلي مولاه**) تنويهًا لفضله واختياره، رضي الله تعالى عنه، وردًا لما يقوله بعض الناس فيه.

وهنا ربما وقع لعلي رضي الله عنه هذا؛ أرمد في عينيه، وهذا أدى إلى بعض المقالة فيه، وهذا يقع..

مما يذكر في معركة القادسية أن سعد رضي الله تعالى عنه الناس قالو فيه مقالة؛ وذلك أنه لم يقدِ المعركة من الداخل، وإنما جلس فوق القصر يقودها. وعذره في ذلك، لمن ذكره، هو دمامل في رجليه منعته من ركوب حصانه.. هكذا

يقولون، وأنا أعتقد أن هذا من المقادير التي تلائم حكمة الفعل؛ لأن هذه المعركة كانت لا تحتاج إلى قائد يخوض فيها بسلاحه، بمقدار ما تحتاج إلى قائد يشرف عليها من فوق ليديرها، فتحقق الأمر القدري مع الأمر الشرعي.

كان فوق القصر جالسا، حتى إن زوجته -وكانت تحت المثنى قبله؛ لأن المثنى هو الذي عينه خالد بعد أن أمَره أبو بكر الصديق أن يذهب إلى الشام...

تعلمون أن أول جيش أرسله الصديق، بعد الانتهاء من الردة، إلى العراق وليس إلى الشام، فأرسل خالدًا إلى العراق وحدثت بعض المواجهات بينه وبين الفرس، ثم لما أرسل الجيوش الأربعة إلى الشام واجتمعت الروم عليهم بهذه الكثرة أرسل أبو بكر ﷺ إلى خالد بأن يلحق أميرًا إلى الشام، وقاد المعركة في اليرموك.

القصد: أن خالدًا ﷺ عيَّنَ المثنى، ثم استشهد المثنى ﷺ؛ فكانت تعيره، زوجة المثنى، كانت تعير سعدًا لما ترى جموع الفرس يهجمون على قبيلتها بجيلة، فيأمر الجيوش أن تدافع عنها، تقول: أين المثنى ولا مثنى بعده؛ تعرِّض بسعد، فلطمها.. ضربها، يعني هذا ليس وقتنه الآن.

فالقصد أنها كانت تعيره.

أنا أردت من ذكر هذا أنه يقع مرات من بعض القادة أو الإنسان تقصير بسبب عذر عنده، فيأتي الرجل الصالح ويأتي العالم به فينوه بفضله.

وأنا أعتقد أن هذا هو سبب الحديث الذي بين أيدينا؛ أنه أرمد فلم يشارك المشاركة الملائمة في المعركة، فأراد النبي ﷺ أن يبين فضله.

"وبات الناس يدوكون".

يعني: يتحدثون من الذي سيعطاها، وصاروا يستشرفون.

"**فقال**: **أين علي بن أبي طالب؟** **فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه**" حتى ما حضر.

"فأرسل إليه فأتى، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه".

وهذا من معجزاته ﷺ، بصق في عينيه فصلحتا.

ما يهم هنا: أن هذا -أول شيء- يدل على فضل علي. الأمر الثاني: إذا صح هذا التفسير، ينبغي على المرء أن يراعي أحوال الناس، وأن يبين لهم الحقيقة حين تغيب بسبب الإشاعة وبسبب ظروف ما.

نرى أن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما وقف عليه رجل ينوه ببعض ما جرى لعثمان -في زعمه- من أخطاء، فقال: ألم يكن عثمان في أحد فرَّ؟ قال: **نعم، فرَّ**. قال: ألم يغب عثمان عن بيعة الرضوان؟ ألم يغب عثمان عن بدر؟ أجاب: **نعم**.. انظر إلى هذه الصيغة!! الكلام في سياق ما يتغير معناه، بهذه الأجوبة المبتورة بنعم أو لا والخارجة عن سياقها تكون تهمة في حق عثمان رضي الله تعالى عنه، فجعل عبد الله بن عمر يفسر: **أما أنه هرب فكما هرب الناس وتاب الله عليه**.

ما معنى (تاب الله عليه)؟ هذه مرتبة مدحية؛ لأن الله تاب على الأنبياء ﴿**لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ**﴾، ويتوب على الصالحين، ويقع من الصالحين ما يقع؛ فإذا تاب عليه دل على حبه له.

أحبه فتاب الله عليه كما تاب على غيره، في أحد لم يهزم هو لوحده. أما ما يقوله الروافض أنهم وجدوه في المدينة فهذا من الكذب.

المهم: ثم بيَّن لماذا غاب عن بدر: **فالنبي أمره أن يبقى عند زوجته؛ لأنها كانت في النزع، وزوجته هي ابنة النبي ﷺ؛ ولذلك النبي ﷺ قسم له قسمة المقاتل في بدر**.

وأما أنه لم يحضر بيعة الرضوان؛ فلأن النبي ﷺ أرسله إلى قريش، لم يقبل أحد من الصحابة أن يذهب إلى قريش خوفًا من أن يقتل، ولم يجد عند قريش من جنوده أكرم من عثمان وأكثر عصمة بأن لا يقتل إذا أرسل رسولًا إلى قريش في صلح الحديبية، فأرسله هو. ذهب عثمان مستسلمًا، وشاع بين الصحابة أنه قد قتل، فالنبي ﷺ صفق بين يديه وقال: (**وأما هذه عن عثمان**). هل هناك أكرم من هذا المقام وأن تكون يد النبي ﷺ تمثل يد ذي النورين؟!

فالقصد: هذا ينبغي أن يفهمه القائد، ويفهمه المرء، أن يفهم كيف يدافع عن إخوانه؛ ولأن الناس يشيعون ويتكلمون فينبغي أن يبين لهم ويذكر من الخصال.

وإدارة النبي ﷺ، في ظني إذا صح هذا، إدارة هذا الأمر على هذا المعنى من حكمة الفعل، من حكمة الأمر، وأن يظهره كأن يسأله الأسئلة، كما فعل الفاروق لما أنكر الناس إدخال ابن عباس مع الأشياخ في المشورة، فإنه سألهم سؤالًا ليبين فضله.

هكذا يُجري الحكيم من الأمور ما يبين فضل الناس إذا غاب؛ كفضل العلم، فضل الشجاعة، فضل الكرم، يبين له هكذا، يثبت لهم من أجل أن يدافع عن إخوانه، وهذه هي سيرته ﷺ في تعظيم أصحابه رضي الله تعالى عنهم.

"يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على النبي ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها".

من هنا يأتي هذا الفضل، أن المرء يقدم نفسه إذا كان في ذلك فضل، وأخذ من ذلك لما سأل النبي ﷺ عن مثل المؤمن كالشجرة التي لا يسقط ورقها فلم يجب أحد، فقال: (**هي النخلة**)، فعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال لأبيه: **علمت أنها النخلة ولكنني خجلت أو استحييت أن أتكلم بين أبي بكر وعمر والكبار**، فقال: **لو فعلتها كان أحب إلي من كذا وكذا**. أي: أن يظهر فضل ابنه في الدين، فضل المرء في الدين والمنافسة ﴿**وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾

فهذه الموجودة في نفوس الصحابة لا تعاب، الرغبة في أن يعطى الراية؛ ليس لأنه يريد أن يكون أميرًا بمقدار أن يكون على هذا الوصف الذي ذكره رسول الله ﷺ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

الدرس السابع عشر:

أمره ﷺ عليًّا في غزوة خيبر بالدعوة إلى الإسلام (2)

[12 ديسمبر 2018 – 4 ربيع الآخر 1440]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

ما زلنا مع كتاب "حياة الصحابة" للشيخ مُحَمَّد يوسف الكاندهلوي عليه رحمة الله، وتحت باب: (أمره ﷺ عليًا في غزوة خيبر بالدعوة إلى الإسلام).

تكلمنا عن فائدتين أو فوائد فيما تقدم

والحديث: **أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على النبي ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال: فأرسل إليه فأتي، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال رسول الله ﷺ: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم.**

في هذا الحديث أمر مهم قد يخفى على بعض الناس، وهو قوله ﷺ: (**لأعطين الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه**).

هذا الوعد لماذا يقع وكيف يقع على نفوس الناس؟ ولماذا يقوله؛ لأنه عند بعض الناس ربما يؤدي إلى التواكل؟

في هذا الحديث قال: (**يفتح الله على يديه**)؛ يعني: هو موعود، فلماذا يذهب يبذل جهدًا في التفكير والتخطيط والإقدام والمقاتلة، لماذا؟! أليس في هذا القول تطمينًا للمرسَل بأن هذا أمر قد انتهى؟!

هذا المعنى يشترك فيه، والجواب عليه هو المدح الذي أوقعه الله على أصحاب رسول الله ﷺ، وأوقعه رسول الله ﷺ على أصحابه؛ عندما يقول النبي ﷺ في هذا الحديث عن علي: (**يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**)، ألا يدعو هذا لأن يتكل ويسكت؟ عندما يُبشَّر أبو بكر بالجنة وأنه سيدعى من أبواب الجنة الثمانية، ألا يدعوه هذا للكسل؟

هذه الأسئلة إنما تنشئ في النفوس المريضة، وهذه التصورات إنما تنشئ لمن لا يعلم هذه المعاني الجليلة في القلوب الجليلة العظيمة. يعني: إذا جئت للساقط من البشر والهامل من البشر فمدحته، أدى به إلى مزيد كسل ومزيد ضعة ومزيد خسة ونذالة، لا تنفعه، ولكن الكريم إذا وضعته في مكان كريم قام به حق القيام، وإذا أثبت له وصف من الخيرية وهو يعلم من نفسه أنه ليس كذلك لأتى به من أجل أن لا يذم قائله وأن لا يبطل قول من مدحه فيه، يقول: سأثبت لك أنني كما قلت وأنا رجلك في هذا.

الصحابة ﵃ وصلت درجة مدح الله لهم أنها دافع للحق وأنها مسيّرة لهم إلى الخير:

عندما يقول النبي ﷺ لعبد الله ابن عمر: (**نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم الليل**) فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلًا.. انظر كيف دفعته!! كان لا ينام من الليل إلا قليلًا.

عندما يقول الله عن أبي بكر: ﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى**﴾، الأتقى.. والمفسرون يقولون: هي نازلة في خصوص أبي بكر، هو الأتقى نزلت فيه –وأفضل من تكلم عنها بتفصيل جميل هو الفخر الرازي في تفسيره، ارجعوا إليه ففيه كلام جميل جليل جدًا في إنزال هذه الآية على الصديق ﵁– عندما تنزل هذه الآية على الصديق هي على معنى نزولها على قلب مُحَمَّد ﷺ.

عندما يخبر ربنا عز وجل رسوله: (**غفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر**)، هذه النفس الجليلة كيف تتلقى هذا الأمر؟ هل تتلقاه بقول: خلاص!! عفا عني؛ فلآتي من المعاصي ما أريد؟ هل تتصور أن هذا المعنى يقع في قلب الحبيب المصطفى ﷺ؟! أم يكون في مقامه كما قال ﷺ: (**أفلا أكون عبدًا شكورًا**)؟

عندما يقع هذا المعنى: يدعى من أبواب الجنة الثمانية، وهو الأتقى، وهو وزيره ﷺ ومعه في الجنة، إلى آخر ذلك من المدح، كيف يقع هذا على النفس الجليلة؟ يقع على النفس أنها تريد أن تشكر الله، تريد أن تحمده، تريد أن تكون في هذا المقام، تريد أن ترضي هذا الحبيب الذي رضي عنها، تريد أن ترضيه؛ ترضيه لأنه رضي عنها، تريد أن تزيد من حبه لأنها أحبته.

هذه فعل النفوس الجليلة.

وهذا المعنى يجيبنا في هذا.. عندما يقول له: سيفتح الله عليك، إلامَ يدعوه هذا؟

الوعد –لو فهمناه على جهة الحقيقة– هو أمر بإتيان أسبابه ليقع.

لما يقول: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾، هذا أمر، هذا لا يأتي إلى النائمين، هذا أمر من الله أن يقوم المسلم بأخذ أسباب الاستخلاف على أحسن وجهها ليقع هذا الوعد الإلهي؛ لأنه يبحث أن يكون من مقام ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ**﴾، يريد أن يكون بهذا المقام، إنه في مقام الذين آمنوا فأعطاهم الله عز وجل الجزاء الدنيوي بالاستخلاف.

فلذلك؛ حين يأتي الوعد والبشارة من النبي ﷺ، فهذه ماذا تقتضي؟ تقتضي من العابد والعالم على هذا المعنى أن يأتيها على وجهها، هذا أمر مهم جدًا، فترفع مستواه.

يقول النبي: (**يفتح الله على يديه**)؛ هو يعلم أن الله لا يفتح على غبي ولا يفتح على كسول ولا يفتح على عاصٍ، فيأخذها على معنى الجد والاجتهاد والتدبير والحكمة والإخبات إلى الله والدعاء.

المعنى الثاني، وهو مهم جدًا، وهو أن الصحابة يفهمون أن الوعد لا يقع معلقًا بلا شروط، ولذلك يخافون أن يكون الوعد مذكورًا فيه شروط. وما من وعد إلا وفيه شروط، هذه حقيقة الرب سبحانه وتعالى؛ إنه لا يوقع الوعود بلا أسبابها وبلا شروطها، فكل وعد لا بد له من شروطه، فيخاف الصحابي أن لا يأتي بالشروط فيتخلف الوعد، فيكون خوفه من الله عز وجل بمزيد عبادة لئلا يتخلف الشرط.

وهذا وجدناه، هذا أكرره دائمًا، هذا وجدناه في حادثة أبي بكر مع النبي ﷺ لما قام النبي يدعو في بدر، لما قام يدعو ماذا قال له أبو بكر؟ قال له: **كفاك مناشدتك ربك**. يعني: الله وعده، فلماذا هو يبكي؟ يخاف أن يتخلف الوعد لتخلف شرط لم يأتِ به على وجهه، يخاف، فيأتي به على وجهه فيخاف فيخبت لله: يا رب اغفر لي إن قصرت أو أذنبت، علمني وفهمني وأقمني موقف الحق الذي يحقق هذا الوعد.

فكلمته ﷺ هنا (**يفتح الله**) هذه تخاطب من؟ (**يفتح الله عليه**) هذه تخاطب نفسًا علوية تتعامل مع دين الله بفقه وفهم، وتتعامل مع الله بأدب، وتتعامل مع الله عز وجل بما يليق به.

المسألة ليست مسألة (أنت أعطيتني وعد وأنا أسرق منك)، ليست مخاتلة على (توقيع ورقة على بياض) كما يفعل الناس.. بعضهم: اكتب لي ورقة على بياض وأنا أملأها كما أحب.

لم يعطِ الله ربنا سبحانه وتعالى لأحد ورقة توقيعًا على بياض، ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾؛ فهذه سنة الله عز وجل، هذه فائدة ينبغي أن ننتبه لها.

(**يفتح الله عليه**) هذه دالة على ماذا؟ دالة كذلك على معجزة نبوية له ﷺ بأن أعلمه الله عز وجل أنه سيفتح عليه في هذا.

"فبصق رسول الله ﷺ في عينيه".

هنا نقطة نحن نقولها دائمًا: مادة النبي ﷺ تختلف عن مادة البشر. يعني: بصاق النبي ﷺ يستشفى منه، وعَرَقَه يستشفى منه، وآثاره يستشفى منها، وهذا خاص للنبي ﷺ.

قد يقول قائل: كيف يبصق في عينيه؟ أنت تتحدث عن نفسك.. لأنك لا تحب النبي ﷺ ولا تعرف من هو، وأما الصحابة؛ فرضي الله عنهم يعلمون قيمته ويعلمون من هو ﷺ؛ إذ كانوا يستشفون بآثاره عليه الصلاة والسلام.

قال: **"ودعا له فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع".**

وهذه من معجزاته ﷺ.

"فأعطاه الراية. فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟".

والمقصود: أن يكونوا مسلمين. يعني: لا يكونون مثلهم في كل باب من التقوى والمرتبة، وإنما المقصود به أن يدخلوا الإسلام وأن يأتوا بشرائعه التي أمر الله عز وجل بها. فالنبي ﷺ لم يقل له: لا، وإنما أجابه إجابة الحكيم.. ما معنى (إجابة الحكيم)؟ إجابة الحكيم وجواب الحكيم وهو أن إذا سأل المرء سؤالًا أن ينبه إلى ما هو أهم منه أو أن يصرف السائل إلى شيء آخر.

أعظم جواب حكيم هو جواب من؟ هو جواب يوسف عليه السلام؛ هم سألوه عن الرؤيا فأين ذهب بهم؟ ذهب بهم إلى التوحيد، ذهب بهم إلى الدعوة إلى الله.

القرآن قال: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ...**﴾، لم يجبهم عن ماذا ينفقون وترك إجابة ما ينفقون إلى ما بعد ذلك في قوله: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**﴾.

فهذه إجابة الحكيم.

فالنبي ﷺ عندما سأله علي ﷺ: "**أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟**". فبيّن له النبي ﷺ أمرًا آخر، قال: (**انفذ على رسلك**).

ما الرسل؟ الرسل من الإرسال؛ ولذاك يسمى الحبل رسلًا لأنه يرسل، كلما طال الحبل أرسل به. فـ(**انفذ على رسلك**) أي: على أمرك، امش حيث طلبت منك.

"**حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام**".

نؤجل الحديث عن الدعوة وإقامة الحجة إلى درس قادم.

أقول قولي، وأستغفر الله لي ولكم.

فهرست السلسلة